الفصل السابع

الهجرة الكبرى إلى إزمير

أوَّلِ رباطٍ لخيل الفتوح..!

مدينة على شاطئ الغربة

مدينة إزمير.. والسر كل السر في إزمير..!

فلم تزل أمواج البحر الأبيض المتوسط المترددة ما بينها وبين جبل طارق، تعقد توأمة الأسى ما بين غرناطة وإزمير، وترتل صخورُهما على مقام واحد مرثيةَ النور..! كل شيء كان هنا على ما يرام طيلة الربيع الذي كان.. ثم فجأة زحف الظلام على الديار!

في يوم من الأيام العصيبة، هاجمت الأمواجُ الزاحفة من خلجانِ اليونان شواطئَ إزمير، فأغرقت كل موانئها الحطيمة! كانت أسوار المدينة مفتوحةَ الأبواب والثغور.. فداهم الماءُ الهائج الشوارعَ والدروب، حتى كادت إزمير أن تغرق في البحر الأبيض، تماما كما غرقت غرناطة، وتصبح خبرًا في التاريخ الذي كان!

عندما غزا الروم مدينة إزمير ذات غفوة من نعاس الزمان، وجدوا أميرةً عثمانية، تاهت في شاطئ البحر، تبحث عن والدها القتيل، فأسروها.. واحسرتاه..! كانت طفلة جميلة ذات غدائر من نور.. لو كشفت عن درها المكنون يا سادتي لبهرت الغزلان في مروجها الخضراء، ولأخرست حناجر الترجيع والتغريد..! ولكانت هي وحدَها القصيدةَ والنغم!

فوامعتصماه! من لأسيرة الشرف الجريح؟ من لِسَلِيبَةِ الوطن القَريح؟

.....

ودخل فتح الله مدينة إزمير خائفاً يترقب! كان يَحْذَرُ أن يكتشف أحدٌ

سِرَّهُ قبل الوصول إلى باب الحصن.. فقد حمل على عاتقه مسؤولية فتح الأبواب على مصراعيها لخيول الفاتحين!.. كان يحمل في محفظته الصغيرة كعادته بذور النور، وخارطة لتحرير الأميرة الأسيرة.. لكنه هذه المرة كان يحرك مفاتيح الأسرار لأول مرة!

وَفْتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَباً!

مدير لمدرسة "سوق الكَسْتَناء"

سوق الكَسْتَناء، أو "كَسْتَانَه بَزَارِي" بتعبير الأتراك، اسم مكان يتوسط مدينة إزمير الرومية العمران والإنسان، هناك انتصبت باحتشام أعمدة مدرسة للتعليم الديني، كان يشرف عليها محسنون تحت إدارة رئاسة الشؤون الدينية. مكان صار له في قلب محمد فتح الله كولن -بعد شهور من المعاناة والألم- أثر وجداني عميق، ملأ عليه حياته كلها!

.....

حدثني راوي الأشجان قال:

عندما وصل فتح الله جامع سوق الكَسْتَناء، وجد السيد "إسماعيل تُورَه" في انتظاره، فحمل عنه حقيبته. كما وجد جمعا من الناس في

باب الجامع ينتظرون وصوله باهتمام بالغ. ودخل فتح الله جامع سوق الكَسْتَناء، وهو مسجد تاريخي عريق، يوجد بفنائه مسكن للطلبة. هناك ستبدأ مرحلة جديدة من حياة فتح الله الدعوية. مرحلة مختلفة تماما عما سبقها من مراحل، كَمّاً وكَيْفاً!

وضع حقيبته الصغيرة بالغرفة المخصصة للمدير في مسكن الطلبة. ورتب أشياءه القليلة في خزانة زجاجية صغيرة. كانت هناك أريكة سريرية، فكان يتخذها أريكة بالنهار وسريرًا بالليل. دخل على الطلبة فنظر في وجوههم فأدرك أن عليه أن يبقى إلى جانبهم ليل نهار..! وأن عليه أن يبذل جهداً كبيراً لإصلاحهم. فجعل لنفسه مهمة دائمة بالمرور على مساكن الطلبة بالليل والنهار، ومراقبة الغرف والحمامات وغيرها من المرافق.

لكن فتح الله أدرك للوهلة الأولى أن الطلبة لم يكونوا مقتنعين تماما بأن هذا الفتى الشاب هو مدير المدرسة، بل ولا الأساتذة كانوا كذلك! والأدهى من هذا وذاك أن بعضهم كان يقول للطلاب -وفتح الله يسمع- ألم يجد الأستاذ يَشَارْ غير هذا الولد الصغير ليرسله لنا مديراً؟ وبقدر ما كان ذلك يجرح عواطف فتح الله كان ينقص من هيبته لدى الطلبة ويجعل مهمته أكثر صعوبة، بل إن الذي قدمه للطلبة في أول الأمر -وهو مدير سابق لسكن الطلاب- قال لهم في تقديمه: "أيها الطلبة! سيكون هذا الفتى من الآن مديراً لكم، أو شيئاً يشبه المدير!" كذا..! فتلقى فتح الله أولى مهامه الإدارية بمعنويات محطمة تماماً!

هكذا كانت البدايات الأولى بمدرسة سوق الكستناء في إزمير، إلا أن النهايات لها قصة أخرى..!

وبقي الأمر كذلك حتى تدخل رئيس جمعية المدرسة ومسؤولها

الأعلى السيد "عَلِي رِضَاء كُوَنْ". كان هذا الرجل من الشخصيات المحترَمة في إزمير، وكان ذكيا دقيق الملاحظة، سريع الإدراك لطبائع الرجال ومعادنهم.. ولذلك لم تمض إلا أيام وجيزة حتى بدأ يكتشف شخصية فتح الله العملاقة! كان "علي رضاء" يمر على مساكن الطلاب في بكور كل صباح ليراقب أحوالهم، لكن بعد مجيء فتح الله ظهر له تغير الأحوال إلى أحسن، وما دخل إقامة الطلاب قط إلا وجد المدير الشاب قائما بدوره على أحسن ما يرام! حتى كان يوم دخل عليه وهو يؤدي وظيفته، فما كان منه إلا قال له: "فضيلة الأستاذ فتح الله! هذا السكن أمانة في عنقكم كليا؛ فلم يعد ثمة داع لمجيئي إلى هنا بعد الآن!" وفعلاً لم يأت السيد علي رضاء بعدها للمراقبة قط. ومن ثم عقد اجتماعا عاما لكل المسؤولين الإداريين في المدرسة، فخاطبهم قائلاً: "إن السيد فتح الله رجل عظيم، لقد لاحظتُ أنه يعمل بجدية كبيرة، وأنه قائم بمهمته على أحسن ما يرام. كما لاحظتُ أنه لا يأكل من طعام الطلبة ولا لقمة واحدة. إنه رجل جدير بالاحترام والتبجيل. فلو أنني أسمع منكم تنقيصا لقدره إذن لأطردنكم جميعاً!" وكانت تلك بداية تغير نظرة الأساتذة والطلبة تجاه مديرهم الشاب.

كانت البداية من كوخ!

بعد مضي نحو ستة أشهر على العمل الإداري والتعليمي، ظهرت شخصية الأستاذ فتح الله كولن بما فيه الكفاية، فخضعت له النفوس المتمردة راضية أو مكرهة، واكتشف الجميع أنه رجل داعية مكين، وشخصية قيادية كبيرة، تتسم بالقوة والأمانة، بصورة لم يعرفوه بهذا المستوى قط. هنالك

قرر المسؤولون عن الجمعية أن يتخذوا له مسكنا خاصا، فبنوا له غرفة صغيرة في فناء المسجد على سعة مترين مربعين فقط. كانت عبارة عن سقيفة من الخشب، أشبه ما تكون بالكوخ. لكن فتح الله أحبها كثيراً، فقد شهدتْ كثيراً من اللقاءات المهمة، وكثيراً من القرارات الدعوية الحاسمة، والتخطيطات المصيرية. وهنالك وضع الحجر الأساس لدعوته في صورتها الجديدة التي استوعبت جميع الوطن التركي، ثم انتشرت في أغلب أنحاء العالم!

وفي تلك السقيفة الخشبية كان يستقبل أصدقاءه الجدد، ومنهم الذين حملوا دعوته فيما بعد، أو ساعدوا في ذلك كثيراً، من أمثال السيد عَلِي رِضَاء كُوَن، والسيد سَاجِد، وصَفْوَت صُولاقْ، وغيرهم. كلهم كانوا يجتمعون هناك، يستمعون إلى حديثه العميق بكل احترام، ويتزودون بما يغذي أرواحهم. وكان فتح الله يصنع لهم الشاي ويقدمه لهم بنفسه. وكان رئيس الجمعية السيد علي رضاء من أكثر المتأثرين به، فقد كان له استعداد كبير للخير والعمل الصالح، وكان قبل ذلك رجلاً فاضلاً جدّاً، عليه مهابة أولياء الله!

* * *

حصل فتح الله على رخصة وعظ تغطي منطقة "إِيجَه" كلها! فكانت فرصة للتعرف الدعوي على كثير من المدن والقرى في المنطقة. كان يسافر للوعظ في كل من أَنْطَالْيَا، وآيْدِينْ، ودَنِيزْلِي، وإِسْبَارْطَه، وتِيرَهْ، وأُودَمِيشْ، وسِيمَاوْ، وصَالِحْلِي، وتُورْغُوتْلُو، وكَدِيزْ، وغيرها من المدن والمحافظات. كان -علاوة على ذلك- يعظ داخل مدينة إزمير في عدة مساجد. كما كان يعظ أحياناً يوم الأحد بعيداً عن إزمير، ثم يسافر ليلاً،

حتى يكون صباح الاثنين أمام الطلبة، يلقي عليهم درسه بمدرسة الكَسْتَناء. كان له برنامج عمل مكثف جدا! وكان يتحرك في كل اتجاه بسرعة. كان في البداية يسافر عبر المواصلات العمومية، ولكنه فيما بعد تعرف على صديقيه السيد يُوسف بَكْمَزْجِي، والسيد كوسة محمود، اللذين كانا يكتريان سيارة للدعوة، فيرافقانه فيها حيثما ذهب. أما السيد "مصطفى بِيرْلِيكْ" فقد فرَّغ نفسه وأفراد أسرته لخدمة الأستاذ فتح الله ودعوته، كما فتح بيته للقاءاته. فكان فتح الله يعقد فيه مجالس خاصة للتربية والتكوين كل ثلاثاء وسبت.

كانت الأوضاع الدينية في إزمير وقتها متخلفة، ولم يكن فيها من طلبة العلوم الدينية سوى عدد قليل، هم طلبة مدرسة سوق الكَسْتَناء. وكانوا متخلفين على المستوى الروحي إلى أبعد حد. ولذلك نظم لهم الأستاذ فتح الله رحلة إلى مدينتي أَدِرْنَه وإسطنبول للتعرف على فرسان النور، والاغتراف من أخلاقهم والتأثر بمعنوياتهم الروحية.

أما من الناحية الأمنية فقد كانت الأوضاع في البداية أقل سوء، وإن لم تَخْلُ حركته من مراقبة بوليسية خفية. ومن حسن الحظ أن الشرطي الذي كان مكلفا بمراقبة فتح الله كان من مدينة أرضروم، ومن خريجي ثانوية التعليم الديني، أي ثانوية الأئمة والخطباء كما تسمى في قانون التعليم التركي. وكان يتلقى الأستاذ ويهش في وجهه ويحدثه طويلاً، وكان لا يكتب في حقه إلا التقارير الإيجابية. وما كان للأستاذ علم لا بوظيفته السرية ولا بما يكتب عنه، إلى أن اكتشف ذلك -فيما بعد- في نسخة من التقارير المرفوعة إلى رئاسة الشؤون الدينية.

استدعي فتح الله مرة للتحقيق في مقر النيابة العامة، وكان سبب ذلك

أن امرأة قاضية عينت بمحكمة مدينة أَدِرْنَه، مكان القاضي السابق الذي كان يحاكم فتح الله من قبل هناك. فكتب إليها أحدهم رسالة يهينها فيها ويشتمها، ثم وقَّعها باسم فتح الله كولن! فجاءت المراسلة بذلك إلى النيابة العامة بإزمير فكان ذلك التحقيق، لكن الرسالة كانت من حسن الحظ مكتوبة بخط اليد فأدرك المحققون على التو أنها ليست بخط فتح الله فأطلقوا سراحه فوراً!

ثم استطاع محمد فتح الله أن يقتحم أسوار جامعة إزمير من خلال معهد العلوم الإسلامية التابع لها، فكان يشارك في الندوات المنعقدة به، وقد ألقى مرة كلمة عن الاقتصاد الإسلامي، وأخرى في مفهوم التصوف. وبذلك استطاع تصحيح كثير من المفاهيم التي كانت شائهة في تصورات كثير من المثقفين عن الإسلام، وكذا إمداد الطلبة المتدينين بمستند قوي في مواجهة المد العلماني.

كان الشيوعيون يكتبون في الجدران ضد الإسلام، وكان الشباب المسلم يرد عليهم بنفس الأسلوب، فكان فتح الله ينصح بأن لا فائدة من هذا الأسلوب. وانخرط بفعالية في المحاضرات التي تنظم بالمدينة كل أسبوع. وكانت تدخلاته دائما تلقى الاهتمام الكبير، وتصبح مدار حديث الشباب. كما ألقى عدة محاضرات حول القرآن ومنهج التعامل معه في تفسير الظواهر الكونية والحقائق العلمية. ومن ثم تطور هذا النشاط المكثف إلى تأسيس جمعية قانونية تحتضنه، هي "جمعية الانبعاث"، كان أعضاؤها بعض طلبة الجامعة وشخصيات من أهل الفضل مع الأستاذ فتح الله. لكنها لم تدم طويلا بسبب عدم وضوح الرؤية ووحدة التصور، فصارت مجرد ركام من الكلام، فحلَّها فتح الله نفسه مع بعض رفاقه.

ثم انتقل تفكير فتح الله إلى إقامة مبنى جديد لثانوية الأئمة والخطباء الرسمية، وإقامة مبنى خاص لمعهد العلوم الإسلامية التابع للجامعة؛ ذلك أن الدولة كانت يومئذ تهمل مؤسسات التعليم الديني التابعة لها، فلا توفر لثانويات الأئمة والخطباء إلا بنايات خربة! وأما معاهد العلوم الإسلامية للتعليم العالي التي سميت بعدُ بكليات الإلهيات؛ فربما لم توفر لها وزارة التعليم مبنى خاصا بها أصلا، وإنما تحل المشكلة بأن تخصص لها جناحا، أو طابقا معينا في كلية أخرى!

فكان فتح الله يخرج هو والسيد علي رضاء والدكتور دُرْسُونْ للبحث عن القطع الأرضية المناسبة. فكان أن عثروا على مكان مناسب بالفعل فتم شراؤه، وكانوا يذهبون من أجل ذلك لجمع المال من رجال الأعمال وكبار التجار، وكانت لفتح الله في ذلك تجارب مريرة استفاد منها دروسا كثيرة، شكلت له فيما بعد علما خاصا في صناعة الخطاب المؤثر على أرباب المال، مما أفاده في تطوير دعوته كثيراً.

وليس ينسى كيف تصدق عليهم مرة أحد أصحاب المصانع الكبرى بخمسين ليرة فقط! وهناك أدرك أن هذا الأسلوب لا يفيد إطلاقا في جمع المال من المحسنين، وأن عليه أن يستدعيهم إلى مكان ما بدل السعي إليهم في محلاتهم.

فكان أول اجتماع لذلك في غرفة فوق متجر الحاج أحمد تَتَارِي. كانوا بضعة أشخاص من التجار، فكان أول المتحدثين فتح الله، ثم تحدث بعده السيد علي رضاء، ثم انطلقت عملية جمع النقود. فأعطى السيد تَتَارِي مائة ألف ليرة، وأعطى علي رضاء نصفها، وأعطى كل شخص بعدهما على قدر همته. لكن الذي استغرب منه فتح الله هو أن أغناهم وأكثرهم مالا

أعطى ألفي وخمسمائة ليرة فقط. ثم قال: "كلٌّ يعطي على قدْر إيمانه!" فأدرك فتح الله أن أهم شيء في مجالس التطوع هو إقناع المحسنين بأهمية المشروع الإسلامي، والخدمات الدعوية. فكان ذلك أساس خطابه في مثل هذه المجالس فيما بعد. واستمر العمل على قدم وساق تحت رعاية الأستاذ فتح الله، حتى تم افتتاح ثانوية الأئمة والخطباء، والمعهد الإسلامي للتعليم العالي في مبناه الجديد. وكان ذلك أول خطوة استراتيجية في مشروع العمل على إخراج جيل جديد في العالم التركي السليب.

خطوة نحو الإعلام

الإعلام والتعليم في الجوهر مهنة واحدة، وحقيقة واحدة.. ومن ثم فقد بادر الأستاذ مع رفاقه إلى إصدار جريدة "الاتحاد" في إزمير. كان الصديق القديم صالِح أُوزْجَان يزور إزمير كثيراً، فتم التنسيق معه، كما تم التنسيق مع الأخ الكبير تلميذ بديع الزمان النورسي السيد زُبَير كُنْدُزْآلْبْ. فصدرت جريدة الاتحاد بشكل أسبوعي. وبمناسبة موسم الحج لعام ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م طبعت نسخ وفيرة، وباعها طلبة النور في مكة ومنى بكثرة، فكانت تلك السنة مثمرة بالنسبة للجريدة!

كان مدير الجريدة هو السيد مصطفى بولات، وهو صديق حميم لفتح الله منذ الطفولة، فهو أيضا من أرضروم. كان صحفيا ماهراً خبيراً بصناعته، عاشقا لمهنة الصحافة. كان فتح الله يعتقد أنه لا يمكن وجود صحفي مثله أبداً في تركيا! كان رجلا خبيراً في تصميم الصحف. وهو في الآن نفسه كاتب مكين. لم يره أحد قط يكتب مسودة لمقالاته، وإنما كان يرتجلها

ارتجالاً. وهو عندما يكتب كان يفنى في مكتوبه عما حوله، ويتصبب عرقاً حتى في فصل الشتاء! كان ينخرط في الكتابة بصورة غريبة جداً!.. يُدخل قدميه في الماء البارد، ويضع الآلة الكاتبة أمامه، ثم يشرع في رقن أفكاره باسترسال، حتى إذا انتهى قال لمساعديه: "خذوا هذا وانشروه في الجريدة!".. هكذا من غير حاجة إلى مراجعة أو تصحيح. كان مصطفى بُولاَت ماهراً، موهوباً، وارثا لمهنته، فقد نشأ في بيت الصحافة. ذلك أن أباه هو صاحب جريدة "القول الحر" التي كانت تصدر محليا في أرضروم. كان مصطفى بولات يكتب مفكرته -منذ أن كان طفلا صغيراً- برموز مختزلة لا يقرؤها غيره! وبسبب تلك المواهب والمهارات كلها، كانت جريدة الاتحاد تصدر بجودة عالية.

في تلك الأيام كان محمد شَوْكَت أَيْكِي يصدر جريدة "اليوم" من إسطنبول، وكانت جريدة ناجحة حقا، فقد كان عدد توزيعها يفوق مائة ألف نسخة يوميا، وكان ذلك رقما قياسيا في ذلك الزمان. ثم بدأت جريدة الاتحاد تتطور في اتجاه متصاعد، فأثار ذلك حساسية بعض المشرفين على جريدة "اليوم"، بل صاروا يحسدونها. كان بعضهم يظن أن جريدة "اليوم" هي الممثل الوحيد للاتجاه الإسلامي. وتطور الخلاف بين المحررين هنا وهناك، إلى درجة ظهور الصدام على صفحات الجريدتين، فتقاذف الكُتَّابُ من الجانبين مقالات النقد والاتهام، مما أثار غضب الأستاذ فتح الله. فاتصل مرة عبر الهاتف بصديقه "مصطفى بولات" فقال له: "يا أخي! لِمَ تهاجمون هؤلاء الناس؟ إنني لا أدري كيف أوفق بين أسلوبكم هذا وبين منهج بديع الزمان؟" فأجابه رئيس التحرير بقوله: "يا سيدي! إنهم أيضا يعتدون علينا!" فرد فتح الله بقوة: "إنهم لو اعتدوا علينا عشرات

المرات، ثم اعتدينا نحن عليهم مرة واحدة لنكونن نحن الظالمين، لأننا أصحاب دعوة، ونحن نحمل بجميع أيدينا مبادئ تنير طريقنا! إنكم يا سيد مصطفى لو تصرون على هذا التصرف فسيكون لي أسلوب آخر لحل المشكلة!" قال ذلك بنبرة غاضبة ثم أغلق الهاتف. لكن الأستاذ فتح الله لم ير بعد ذلك صديقه مصطفى، فقد توفي بعدها بوقت يسير في حادثة سير مفجعة. وقد ندم فتح الله كثيراً على ختم آخر مكالمة له بتلك النبرة القاسية.. والله يعلم أنه ما كان يغضب إلا لله، لكن فتح الله صاحب القلب الرقيق، حزن كثيراً على صديقه المحبوب مصطفى بولات، وتمنى لو لم يكن آخر كلامه معه كما كان، ولكن الأمر لله من قبل ومن بعد.

ازدادت الخلافات بين جريدة "الاتحاد" وجريدة "اليوم" في الأيام اللاحقة. مما أزعج الأستاذ فتح الله كثيرًا؛ إذ رأى النزاع المرير يدبّ بين رفقاء الدرب.. وأنى لدعوة أن يكتب لها التوفيق وسط هذه الأجواء.. فقرّر أن يبقى في منآى عن أعمال الجريدة حفاظًا على سلامة السير.

تأسيس السكن الجامعي

وجد الأستاذ فتح الله مفتي إزمير السيد "أَحمد كَرَاكُلُوكْجُو" مع أحد الأئمة في استقباله في أنقرة، عند عودته من الحج سنة ١٩٦٨م. آنذاك كان في أنقرة بيوت يسكنها طلاب متديّنون يدرسون في الجامعة. فاجتمع منهم تلك الليلة نحو أربعين طالبا في أحد تلك المساكن لمدارسة الدين، واستدعوا لذلك السيد فتح الله وفضيلة المفتي. فكان أن انبهر المفتي بمنظرهم وإخلاصهم لدينهم. فلما كان راجعا مع فتح الله إلى إزمير قال

له: "يجب علينا أن نفتح بيوتا كهذه في مدينتنا. عليك أن تفتح ما شئت من البيوت، وأن تُسْكِنَ فيه من شئت من الطلبة المتدينين، وأنا عليَّ أن آتي بثمن الكراء من جمعية نشر العلم". وكذلك كان، فقد أسس فتح الله أول سكن للطلاب بإِزْمِير، وكان السيد المفتي يأتي بالكراء لمدة سنة كاملة. وكان ذلك نواة لخير عظيم وخدمات كبيرة في الدين والدعوة بتركيا. كان الحي الذي اسْتُؤْجِرَ فيه البيت سيئا للغاية، لكن سكن الطلاب كان كواحة خضراء في قلب صحراء. فهنالك كانت تعقد مجالس الذكر والمدارسات الإيمانية.. وكان فتح الله كثيراً ما يحضر مجالس الطلبة هناك، حتى إنه كان يتمنى لو كان بمقدوره الإقامة معهم! وكان أحيانا يبقى هناك إلى منتصف الليل ثم يلتحق بمقر وظيفته الإدارية بمدرسة سوق الكَسْتَناء.

وليس ينسى ليلة كان يقرأ فيها مع الطلبة كتاب "إشارات الإعجاز" لبديع الزمان النورسي، فتأخروا في المجلس إلى وقت متأخر من الليل حتى نام أغلب الطلاب إلا واحداً هو السيد "مُعَظَّم"، فقد بقي يتدارس الكتاب مع فتح الله. ولما وصل فتح الله عبارة: "أيها الحبيب الشفيق، أيها الشفيق الحبيب!"، وجعل يقرؤها بتحنن سمع أنينا عجيبا يصدر من جدار البيت! يصحبه صوت حزين يقول: "آه!.. آه!" وكأنما الجدران تئن من حرارة الشوق إلى لقاء الحبيب. سمع فتح الله ذلك يتردد خمس مرات... بينما سمعه صديقه "مُعَظَّم" ثلاث مرات!

قبل انقلاب ١٢ مارس بقليل، افتتح فتح الله بيتين آخرين، أحدهما في حي بوجا، والآخر في بورناوا. كان السيد مصطفى بيرليك هو الذي اشترى البيت الذي في بورناوا.. اشتراه بالمبلغ الذي حصل عليه من بيع دكاكين ورثها من أبيه. وكان ثمن الدكاكين ٨٥ ألف ليرة، فزاد عليه

الأصدقاء الآخرون مقدار ١٥ ألف ليرة، واشتروا البيت بمائة ألف ليرة. لم يكن السيد مصطفى بيرليك يومئذ يملك مسكنا لنفسه!

ثم اشترى الإخوة في تلك الفترة بيوتا أخرى للطلاب، في أحياء أخرى من إزمير، جعلوها أماكن لانعقاد مجالس الإيمان، ومدارس لتخريج جيل من الطلبة المؤمنين، انتشروا بعد تخرجهم في كثير من مدن تركيا، يحملون هم الدعوة وإنقاذ البلاد من الإلحاد.

مرحلة المخيمات... معسكرات ومحاريب

قال الراوي:

صيف عام ١٩٦٨م، لم يكن فصلاً عاديا في حياة الدعوة الإسلامية بتركيا.. فقد شهد أول خطوة في اتجاه تأسيس المخيمات الإسلامية. كانت المشكلة الأولى آنذاك هي قضية التمويل. تذكر فتح الله أن الجيش كان قد استدان من الناس مبالغ كثيرة من المال، جمعها بُعَيد الانقلاب العسكري الذي تم في ٢٧ مايو ١٩٦٠، وأعطى مقابلها سنَدات أو شِيكات يمكن صرفها في خزائن الدولة في آجالها. فرحل الرجل إلى إزمير والتقى ببعض معارفه فيها وحدثهم عن المشروع فاستطاع أن يجمع نحو ٣٠٠٠ ليرة من سندات الديون. فعاد بها إلى إزمير، ثم أعطى تلك الوثائق لجمعية سوق الكَسْتَناء فحولوها إلى نقود. ثم شرع فتح الله مباشرة في استصناع الخيم. حتى إذا تم ذلك بدأ مع إخوانه في تنظيم مخيمات تربوية للطلاب، هنالك في أعالي الجبال، ووسط الغابات الفطرية البعيدة.

كانت مخيمات ذلك العهد من أهم ما يذكره الأستاذ فتح الله ويتذكره في عمله الدعوي.. فقد كان لها من الأثر الكبير على الشباب ما لا ينساه أحد

مر بمعسكراتها التربوية. كان يتم تكوين الطلبة فيها وتزويدهم بالحقائق الإيمانية والدعوية ما لا يتلقونه في العام الدراسي كله. دامت مخيمات تلك المرحلة ثلاث سنوات متتالية. وكان على رأس الداعمين المخلصين لتلك المخيمات رئيس جمعية سوق الكَسْتَناء السيد "علِي رِضاء كُوَنْ".

لا أحد يستطيع وصف اللذة الروحية التي كان يتمتع بها فتح الله وصحبه هناك في تلك الحياة الربانية بين الأشجار والجبال! كانت كل لحظة تمر أشبه ما تكون بغمامة ربيعية تمطر عليهم من جمال الأنس بالله ما يملؤهم أملا عظيماً في المستقبل، فتضيء الآفاق بقلوبهم بأحلام مخضرة جميلة.. فيعيشون فيها أيام الماضي المجيد، يرون شموسها تشرق من جديد في أفق المستقبل البهيج.. يرونها بعيونهم الواسعة تتجلى عليهم بحللها القشيبة مرة أخرى، وبنقوشها الجميلة، وألوانها الخلابة.. كأبهج ما تكون، وأروع ما تكون!

كان الشباب يستيقظون كل سَحَرٍ، على خرير الماء، وحفيف الأوراق، وزقزقة طيور السحر.. وللنسيم ساعتها وَجِيبُ الشوق الراكض في قلوب المحبين، فلا يزال يعطف جوانح السجاد هنا وهناك؛ يعبر عن حنينه إلى أنين الساجدين، وآهات المتهجدين، فلا يزال يعانق أطياف الشباب المتبتلة قياما بين يدي الله، ويلوي ثيابهم منجرفا مع أشواقهم الحَرَّى في معارج الروح! كان مشهد المتهجدين وهم يغادرون فُرُشَهُمْ في جنح الليل الساجي، أشبه ما يكون بفزع أهل القبور لنفخة البعث... فلا يزالون يضمدون مواجع الخوف والرجاء بالذكر وبالصلاة رُكَّعاً سُجَّداً حتى يؤذن الفجر. فإذا صلى الشباب صلاة الصبح تحلقوا بمجالس الذكر ينتظرون شروق الشمس لأداء ركعتين.

كانوا يعيشون حركةَ الزمان لحظةً لحظةً، ويراقبون كل شيء في مخيمهم الجميل.. كانت حرارة الشمس الشديدة، تُذكِّرهم كلَّ ظهيرة بقول الله سبحانه، حكايةً عن المنافقين المهزومين، الذين تخلَّفوا عن الجهاد: ﴿وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾(التَّوْبة:٨١)، لكن المؤمنين في المخيم يتلقَّون جوابَها مباشرةً من قوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾(التَّوْبة:٨١).. فتتطهر الأنفس، وتقوى العزائم، وتسمو أشواق الروح. كان أهل المخيم يقفون خلف نبي الله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهو يتدبر ملكوت السماوات والأرض، فيوحدون الله عند كل غروب، وهم يشهدون حقيقة: ﴿قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾(الأَنْعَام:٧٦) ويعيشون أشواق: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام:٧٩).. كان الشباب يتلذذون بموائد الروح في هذا الطريق الجميل، فيتحاورون من حين لآخر قائلين: "إذا كان طريق الجنة ممتعا إلى هذا الحد؛ فكيف تكون هي في ذاتها؟!"

في ظلام الليل يختلط الخيال بالحقيقة.. ويصبح أهل المخيم السالكون بمدارج الولاية أَشْبَهَ ما يكونون بمخلوقات روحانية، أو أطياف نورانية، فيسيل هذا النور الأزرق الجميل إلى دواخلهم، ويشربون من كؤوسه نكهة شاي رفيع تنسكب عليهم من أباريق الروح!

كلما اجتمعوا للصلوات، أو لمجالس الذكر كانوا يشعرون بأنس روحاني عجيب، وملامس روحية لطيفة، تغمر قلوبهم بسعادة لا تصفها الكلمات، وكأنهم يحسون بأجنحة الملائكة تلامس رؤوسهم وأوجههم، وتمسح عليهم بليونتها ورقّتها!

وخلال أطراف النهار، يتوزعون على مهامهم بحيوية ونشاط، وكأنهم

في عملهم هنا أو هناك أسراب نحل تتردد على خليتها أيد تعطف وريقات الأزهار أو تمتص قطرات الندى، وأخرى تعالج أقراص العسل اللذيذ! فكذلك شباب المخيم في مهامهم اليومية، ما بين مسالك الأشجار والجداول الرقراقة والأنهار، وما بين خيَمهم وصلواتهم ومدارساتهم، أو مطبخهم ورياضاتهم. كانوا ينظمون رحلات بالمشي على الأقدام إلى بعض القرى، أو إلى بعض منابع المياه، ولاكتشاف بعض المرتفعات أو الأدغال.. وكان أهل القرى الجبلية أو الغابوية يحبونهم كثيراً، ويبالغون في خدمتهم وإكرامهم. وربما نظموا مسيرة ليلية بين الأشجار. كما لم يفتْهم حظهم من التدريب الرياضي، بأساليب شتى، كالمصارعة، والعدْو، والتسلق، وسائر ضروب السباق.

وإلى اليوم ما يزال الذين تخرجوا من تلك الخلايا الأولى يجدون في حلاقيمهم حلاوة ذلك العسل البري الكريم، وما زالت تلك المخيمات تتفتح في كل فصل بورود من أريج الجنة. فبقدر ما كانت تلك اللحظات الروحية الصافية فرصة لتلقي علوم الماضي وجهاد الأجداد؛ فقد كانت فرصة أيضا لقراءة خرائط المستقبل، وتلقي خطواته من برزخ الإخلاص والمدد الإلهي!.. إلى الآن ما زالت ذكريات التلاوات الشجية الباكية بليالي المخيمات، وأصوات الطلبة المتعاطفة بالأذكار والأناشيد، وتعابير الروح المتوشحة بالمسرات والأحزان تدق بأصدائها الخالدة على أبواب القلوب، فتخرجها من فترات الخمول، وتجدد فيها الحيوية والنشاط، سعيا في طريق التجديد الإسلامي الكبير..!

فليس غريبا إذن أن تكون أيام تلك المخيمات في وجدان محمد فتح الله أروع لحظات عمره المبارك، إلى درجة أنه ود لو أتيح له أن يحمل معه

إلى الآخرة باقةً من ذكرى تلك المخيمات الجميلة!

ولقد أدرك فتح الله معاينة ما لمسلك التخييم في الدعوة والتربية من أثر بليغ في إعداد الجيل، وتخريج الطاقات، واكتشاف المواهب والعبقريات، وصناعة الشخصية القيادية، والجندية المخلصة، وطبع ذلك كله بطابع الربانية.

رغم أن المخيم الأول كان أثقل على فتح الله من حيث المشقة والجهد، إلا أن أيامه كانت أحب الذكريات إلى قلبه!.. كان فيه خيمتان كبيرتان للطلبة، وأخرى صغيرة خاصة به. وكان هناك مبنى صغير استعملوه مطبخاً. وكان علِي رِضا يخدمهم بدرّاجته النارية. كانت الإمكانات والوسائل محدودة جدا. كانت العاصفة تهب بالليل أحياناً؛ فكان الطلبة يشكلون مجموعات ويلتفون بالْحُصُرِ، ثم يجلسون خلفها لتدارس الكتب المقررة في المخيم.

كانت أشغال المخيم الأول كلها تقريبا على عاتق فتح الله، من نصب الخيم، إلى التدريس، إلى إعداد الطعام إلى إصلاح ما تعطل من الآلات والأدوات! كان أحيانا يصنع مُحَلَّبِيّة ويوزعها بيده على الشباب. كان يجلس على كرسي ويضع أمامه قِدْرَ الْمحَلَّبِيّة، ويأخذ بيده مغرفة كبيرة، ثم يصطفّ الطلبة بين يديه، كل واحد يحمل قدحه، فيغرف الأستاذ لكلِّ مَن وصله الدور نصيبه من المحلبية، ثم يمازحه بسرور بالغ، ويقول بصوت عال: "مغرفة من الحليب، فصَلِّ على الحبيب ﷺ!"

كان مُوَلِّدُ الكهرباء قديما، وكان يحتاج إلى إصلاح يومي، فكان فتح الله هو الذي يتولى تلك المهمة؛ حتى كان يصبح مختصا في إصلاح الْمُوَلِّدَاتِ الكهربائية؛ لكثرة ما عانى في إصلاح مُوَلِّدِ كهرباء المخيم. غار ماء البئر قليلاً فشعر بأنه في حاجة إلى زيادة حفر، فتولى تلك المهمة أيضا

بنفسه. بنى مراحيض المخيم، وصنع حفرها بنفسه. وليس ينسى الذين شهدوا الأستاذ وهو يحفر بفأسه مكان المراحيض، كيف أن أحد الطلبة المبتدئين، كان واقفا عند رأسه يتفرج عليه وهو يحفر حفرة المرحاض، فكان الطالب يشير على الأستاذ قائلاً: "يا أستاذ احفر هناك أيضا!" فيجيبه الأستاذ بحبور: "نعم! نعم!" ثم يقول الطالب مرة أخرى: "وهنا أيضا!" فيجيبه: "تماماً تماماً!" فيتوجه بالفأس إلى حيث أشار تلميذه! كان الأستاذ يتلذذ بالحفر هناك من أجل أن تخرج ينابيع الماء الصافي في الزمن الآتي، ويجد من ضربات الفأس في يده ما لا يدركه الطالب المتربع على راحته فوق رأس أستاذه. في كل ضربة معول كان يشاهد كنوز كسرى تتناثر بين يديه، ويرى مُلك قيصر يأتي راغما إليه!

بسبب انعدام من يحسن سياقة السيارات هناك كان فتح الله مضطراً للسياقة.. مرة كان يسوق حافلة صغيرة استعاروها من إدارة الإفتاء لنقل الطلبة من مدينة "بوجا" إلى مركز المخيم، فانقلبت به في أحد المنعطفات الوعرة. وليس يدري إلى الآن كيف خرج منها سَالِماً. فقد أصيبت مقدمتها بأضرار بليغة، وقد كلف إصلاحها نحو أربعة آلاف ليرة. أما الطلاب فإنما أصيب بعضهم بجراح متفاوتة. كان من بين الذين أصيبوا "ساجد" ابن السيد مولود سكرتير المفتي، فقد أصيب بفلق في رأسه وسال منه دم كثير. أخبر فتح الله والده على الفور عبر الهاتف فكان أن أجابه بما ليس ينساه في حياته أبداً، قال: "فداك ابني ومئات مثله إذا كنت أنت بخير..!" كذلك قال كثير من النسوة لرسول الله ﷺ بعدما علمن باستشهاد أزواجهن أو آبائهن أو أبنائهن!

في السنة الثالثة اشترى الإخوة سيارة، وكان فتح الله يستعملها لنقل

الطلبة إلى المخيم أيضا، ولخدمات أخرى تهم مصالح المخيم. مرة كان ذاهبا إلى "بُوجَا" لأخذ الطلبة الجامعيِّين إلى المخيَّم، كان يركب إلى جانبه السيد عيسى سراج، وبدأ فتح الله يحاول تشغيل شريط القرآن في مسجلة السيارة، فلم يشعر إلا وقد انفلت المقود من يده، وانقلبت بهما السيارة، لكن الله سلم فلم يصب أحدهما بشيء.. لكن السيارة تضررت، فكلف إصلاحها مصاريف بليغة مرة أخرى. عندما شغل فتح الله مسجل السيارة بعد ذلك وجده قد التقط صوت الحادث وصدى استغاثة صدرت من فتح الله: "يا الله..!" فبكى فتح الله لذلك، وقال لصديقه: لما زلقت قدم بديع الزمان يوما في سطح برج عال نادى ربه: "وَادَعْوَتَاهُ..!" فما أهمه عند مشاهدة خطر الموت سوى أمر دعوته إلى الله! أما أنا فقد أهمتني نفسي!"..

كانت أيام المخيم كلها مسرات، وكانت مشقته كلها متعا ولذات! ولذلك فما كان فتح الله يغادر رباطه ذاك طيلة ثلاثة أشهر إلا لأداء درس الجمعة في مدينة إزمير، ثم يعود مباشرةً إلى مخيمه الحبيب!

زُوَّارُ المخيم كلهم انبهروا بنظامه البديع، ومسلكه الرفيع. فقد تردد على المخيم الأول السيد على رضا، وقدَّم له خدمات كثيرة، والتاجر الحاج أحمد تَتَارِي، والسيد مصطفى بِيرْلِيكْ، وكذلك الداعيان الكبيران تلميذا بديع الزمان النورسي الشهيران؛ السيد خلوصي، ومصطفى صنغور. ومن ثم اشتهر أمر المخيمات بإزمير، وشاع خبره بين صفوف أبناء الدعوة الإسلامية بكل تركيا، حتى إن منهم من أرسل طلبته من أقصى الشرق التركي، وإزمير في أقصى الغرب التركي. فقد جاء طلبة من مدينة "أُورْفَه"، ومن محافظة "دِيَارْبَكْر". وعلى أثر ذلك تناسلت المخيمات الإيمانية في كل الربوع التركي، ما بين بحارها وجبالها، وغاباتها البرية الجميلة. كان

عدد الطلاب في المخيم الأول مائة طالب، ثم بلغ العدد في السنة الثانية مائتين، وفي الثالثة ثلاثمائة. في هذه السنة قل الماء في المخيم، فكان فتح الله يضطر لنقل الماء بالسيارة من مكان بعيد مع التزامه بمهمة التدريس والتأطير التربوي.

كانت البرامج تنبني على الإعداد الروحي والتزكية الإيمانية من جهة، وعلى التكوين العلمي والتدريب على القراءة، خاصة فيما يتعلق بمواجهة الفكر الشيوعي والإلحادي، الذي كان يغزو تركيا آنذاك بشراسة، وكل العالم الإسلامي. كما كان هناك برنامج يومي للتدريب الرياضي الجسماني. ذلك أن فتح الله أقام نسيج مخيماته على ثلاثة مناسج: أولها التكوين العلمي، وثانيها التزكية الروحية، والثالث الانضباط العسكري. وكان في ذلك من التوازن التربوي ما لم يُعْرَفْ له مثيل بتركيا في تلك المرحلة. ومن ثم فقد كان لهذا التكوين الشمولي أثره البالغ في إضعاف موجة الماركسية في البلاد بما خرَّج من الطاقات الإيمانية الفعالة، وما بث منها في كل منطقةٍ وقِطَاع.

كرامات الحجة الأولى..!

كان ذلك سنة ١٩٦٨م. وكان فتح الله في نحو الثلاثين من عمره.. كان شوقه إلى الحج شديداً، لكنه كان يعلم ألا حيلة له إليه. فلا يملك من المال ما يبلغه ولو إلى نصف الطريق، بل لا يكاد يملك منه إلا قوت يومه. وربما صرف ذلك القوت القليل في أمور الدعوة، وطوى الليالي الطوال على بطن جائع. فأنى لمثله أن يطمع في الحج، وهو يستلزم ما يستلزم

من النفقات والمصاريف؟ كان ينظر إلى المنطلقين نحو الحج بعينين مغرورقتين بالدموع. وامتلأ قلبه بالشوق إلى زيارة مسجد رسول الله ﷺ والروضة الشريفة. ووصل شوقه درجة من الوله لا تطاق. حتى إنه ربما كتب رسالة إلى النبي ﷺ، وكلف بها بعض الحجاج من معارفه أن يلقي بها خلف شباك الروضة الشريفة. وإنما كان يحاول في رسالته أن يرسم حَر شوقه ولهيب وجدانه؛ فلعل الله يستجيب دعاءه فيمكّنه من حج بيته الحرام، وزيارة روضة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام!

في موسم الحج لسنة ١٩٦٨م، كانت عملية الاكتتاب للحج جارية في ربوع تركيا على قدم وساق، وكان فتح الله ينظر إلى المكتتبين بغبطة، ويضمد جروح عجزه بالدموع والأحزان..! في تلك الأيام كان يلقي درسه على طلابه بمدرسة سوق الكَسْتَناء، ففاجأه أحد الطلبة بسؤال: "ألاَ ترغب في الذهاب إلى الحج يا أستاذ؟" وشعر فتح الله كأن أحداً وضع الملح على جرحه العميق... فقال له: "ومَنْ أنا حتى أحظى بشرف الحج؟" قالها واغرورقت عيناه بالدموع، ثم غادر القسم فوراً إلى مكتبه، وأغلق عليه الباب وحيداً، ثم جلس على كرسيه، ووضع رأسه بين يديه، ونصبهما فوق منضدة المكتب، ثم انجرف مع مواجيده في بكاء شديد. كان تحت زجاج منضدة المكتب صور للمسجد النبوي والروضة الشريفة، فكان ينظر إليها من خلال دموعه فيزداد نشيجا، وكأنما يبثها أحزانه وشكواه!..

ليس يدري كم مضى من الوقت على حاله تلك.. وإنما الذي يذكره أن أحد الإداريين دخل عليه وهو على تلك الحال، فقال له: "عفوا يا أستاذ! إنهم يطلبونك على الهاتف من أنقرة العاصمة!".. أسرع فتح الله إلى الهاتف فوجد السيد "لُطفي دُوغَان" مساعد رئيس الشؤون الدينية.

فكانت المفاجأة الكبرى أن قال له بعد التحية والسلام: "سيد فتح الله! لقد قررنا في رئاسة الشؤون الدينية أن نبعث مع الحجاج ثلاثة مؤطرين، أولهم: السيد "إبراهيم دَغِيرْمَنْجِي" مفتي دنيزلي. والثاني: السيد "أحمد بَالْطَاجِي" مفتي محافظة أَسْكِي شَهْرْ. والثالث: أنتم فتح الله كولن!"

لم يكد فتح الله يصدِّق ما سمع... فكان لذلك يوقظ قلبَه على صدى تلك الكلمات خشية أن يكون غارقا في حلم!.. كانت تلك هي أول سنة تُقرر فيها رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة إرسال مؤطِّرين للحجاج الأتراك. ثم علم الفتى أن الذي كان وراء فكرة اقتراح اسمه ضمن هيئة التأطير، هو صديقه القديم مفتي أدِرْنَه السابق، السيد "يَشَارْ طُونَاكُورْ"، نائب رئيس الشؤون الدينية حاليا. فدعا له فتح الله كثيراً. وكانت تلك أول رحلة إلى الحج في حياة الأستاذ فتح الله كولن، ولذلك فقد كان لها من الأثر البليغ على قلبه ما لا ينساه أبداً!

لما كان الأستاذ في مكة المكرمة، لم يكن يغادر المسجد الحرام إلا لضرورة. كان معتكفا هناك أمام الكعبة المشرفة ليل نهار.. فإذا غلبه الجوع أكل بضعة تمرات، أو قليلا من البيسكويت، ثم عاد إلى صلواته وأذكاره.

ثم بدا له أن يعتمر بالنيابة عمن لهم عليه حق من حقوق الإسلام. فاعتمر نيابة عن رسول الله ﷺ، ثم عن الخلفاء الراشدين. لم يفكر في صحة عمرة من هذا النوع، خاصة من شابٍّ مثله عن رجال كهؤلاء، لكن فرط حبه للنبي ﷺ وصحبه جعله يقوم بذلك لما يشعر به من حق لهم عليه في الدين. ثم اعتمر بعد ذلك بالنيابة عن أقاربه، وبدأ بأستاذه ومؤسس دعوته بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، ثم أمه وأبيه وأجداده. ولم يزل يعتمر كل يوم عن هذا وذاك حتى إنه كان يعتمر بمعدل ثلاث مرات في اليوم،

نيابة عن أهله وشيوخه وذويه. فقد كان فتح الله ذا بنية قوية لا تعرف التعب ولا الوهن، خاصة عند الانخراط في خدمات الروح كالحج والعمرة!

أثناء عمرته بالنيابة عن جَدّه الأثير جِدّاً "شَامِل آغَا" شعر أثناء سعيه بين الصفا والمروة بإحساس غريب، فقد وجد نفسه كأنما يطير..! وأحس بأن قدميه ترتفعان فوق الأرض وهو يسعى، فأخذته رجفة عميقة في جميع جسمه، واستجابت كل أطرافه لارتعاش شديد، ثم وجد نفسه يتصبب عرقاً.. ثم دخل بذلك في حال من الوجد والشوق، لا يعلم مداه إلا الله!

الإشراق الروحي أو الشهود القلبي، الذي يَحْدُث للإنسان في مثل هذه الأحوال لا يمكن أن يناله في كل الأوقات. يذكر فتح الله أنه قد عاش بعض الأحوال ذهب به الشوق فيها إلى درجة الانجذب. ولكن الحال التي عاشها أثناء عمرته نيابةً عن جده "شامل آغا" لا يمكن وصفها أبداً، ولا التعبير عنها بالكلمات. لقد سجل تاريخ ذلك اليوم في مذكرته، وهو يوم ليس ينساه أبداً على كل حال!

عند قدومه من الحج، استقبله بمطار أنقرة مفتي إزمير، بمعية أحد أئمة المساجد، ثم سافروا جميعا إلى إزمير. وبعد فترة قرر فتح الله السفر إلى أرضروم لزيارة أسرته.. هناك قصت عليه والدته رؤيا رأتها وهو في الحج: فقد رأت كأن جده "شامل آغا" يسبح طائراً فوق السحاب مثل الملائكة. فلما حقق فتح الله معها تاريخ الرؤيا، وَجَدَهُ هو نفس اليوم الذي اعتمر فيه نيابةً عن جَدِّه، وتذكر أنه هو نفسه قد حلق بروحه في أفق تلك الحال، حيث كان يشعر بجسمه وكأنما هو يسبح بين الصفا والمروة. فقد كانت تلك الأحوال من لطائف الكرامات.. وكانت كأنها نوع من التوحد القلبي، أو التواصل الروحي، بينه وبين جده شامل رحمه الله، أو قُل كأنها نوع من

توافق الذبذبات، أو الموجات الأثيرية، بين الحفيد في عالم الدنيا وجده في برزخ الآخرة، لِمَا كان بينهما من عميق المحبة، والترابط الروحي. ولعل الله أشار إلى فتح الله بتلك الحال الخالصة بأن رسالته قد وصلت إلى جده شامل، وليس ذلك ببعيد عن مقام "وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"..!

ثم إن فتح الله لم ينس طلبته في مدرسة سوق الكستناء بإزمير.. فقد كانت نظرته إليهم نظرة خاصة وعميقة الغور. كان ينظر إليهم باعتبار أنهم يمثلون جزءاً من الخلاص لهذا العالم الإسلامي الكبير. ولذلك فقد أخذ معه إلى الحج لائحة بأسمائهم جميعا، فجعل يدعو لهم واحداً واحداً. وعلاوة على ذلك اقتنى لكل واحد منهم هدية صغيرة، تتكون من بضع تمرات، وقليل من ماء زمزم، وخاتم صغير من فضة.

وهناك في الحج بهره مشهد الأجناس البشرية المختلفة تقف بين يدي الله باكية تدعو وتبتهل بلغات مختلفة، لكن بمواجيد واحدة، وأشواق واحدة، ورغائب واحدة... يصطفون للصلاة في صفوف واحدة ويركعون ويسجدون في هيأة واحدة. وهناك ازداد يقينا بأن الأمة رغم جراحها العميقة ما تزال بخير. وكلما غص المسجد الحرام بالمصلين والطائفين كان أشبه ما يكون ببستان مبتهج بشتى الورود والأزهار، من كل الفصول وكل الألوان والأشكال!

وليس ينسى حقد الشيطان اللعين عليه... فقد كانت له معه في المسجد الحرام قصة. ذات يوم صعد إلى الطابق العلوي من المسجد لأداء صلاة الفجر هناك. وبينما هو جالس بُعَيْدَ الصلاة قريبا من الشرفات، يقرأ أوراده وأذكاره، إذ سمع صوتا يأمره بحزم قائلاً: "فتح الله! أَلْقِ بنفسك من على هذا الطابق، أَلْقِ بنفسك من هنا!".. وتكرر الصوت مراراً! فأجاب فتح

الله: "وما فائدة الإلقاء بنفسي من هنا؟" فقال له: "أَلْقِ فقط!" ثم جدد الفتى السؤال: "وما الفائدة؟" قال: "إنه لا يضر، ألق بنفسك!".. فأدرك فتح الله يقينا أنه صوت شيطان، فاستعاذ بالله، ورجع فوراً إلى خلف، بعيدا عن الشرفات. عندما كان الفتى يرجع القهقرى شاهد صديقه الحاج كمال، يرجع وراءه القهقرى هو أيضًا بنفس الطريقة وفي الوقت نفسه. وقد كان بينهما نحو خمسين متراً. وعندما التقاه بَعْدُ سأله فتح الله عن سبب رجوعه القهقرى، فأجاب بأنه سمع صوت شيطان يأمره بأن يلقي بنفسه من على السطح، فحكى له نفس ما سمعه فتح الله في نفس اللحظة من وسوسة الشطان لعنه الله. فعلم الرجلان أنه قد طاف عليهما طائف من الشيطان في نفس المكان والزمان، يريد أن يستغل شدة شوقهما، وهيجان مواجيدهما لإهلاكهما والتخلص منهما، وهما مَنْ هما في قافلة الدعوة وتجديد الدين. فلولا علْمهما بالله لكانا من الهالكين، ومن ثَمَّ لم يفترق الرجلان طيلة أيام الحج، ولم ينفصلا في منسك أو شعيرة.

الفراق الأليم

في نهاية السنة الخامسة من عمل الأستاذ فتح الله في مدرسة سوق الكَشْتَناء، بدأ يشعر بمضايقات من مسؤولي الجمعية المشرفة على المدرسة؛ تبلورت في موقف صريح ضده. ذلك أنهم نَصَّبُوا عليه رئيسا أعلى، وجردوه من جميع صلاحياته الإدارية، وطلبوا منه إعطاء الدرس فقط! ثم أحضروا إلى جانبه أساتذة ممن يعادونه. أما الرئيس المنصَّب عليه فهو رجل صادق، ولم تكن له دراية بنوايا أعضاء الجمعية. كان اسمه

صِدْقي شنْ بَابَا، وكان فتح الله يحبه كثيراً. وكانت العلاقة بينهما على أحسن ما يرام.. وقد سبق للسيد صدقي أن استضاف والد فتح الله ببيته في إزمير. أما أعضاء الجمعية فقد تبين أن ما صنعوا كان بدافع استخباراتي، وأن بعضهم كان مواليا لجهاز المخابرات في إزمير. وكان يغيظهم أن ينجح الأستاذ فتح الله في كسب هذه الثقة العظيمة بين الجمهور الإزميري، وبين الطلاب خاصة، سواء طلاب المدرسة الدينية بسوق الكَسْتَناء، أو طلاب الجامعة بإزمير. ناهيك عن التجار ورجال الأعمال!

في تلك السنة ضرب زلزال إقليم "كَدِيزْ"، فشرع الناس يجمعون المساعدات من مدينة إزمير. وقد كان فتح الله من المنخرطين في ذلك العمل الإنساني النبيل.. ومن ثم غاب عن المدينة مدة لتوزيع تلك المساعدات على مستحقيها في المناطق المتضررة. وبينما الأستاذ منهمك في عمله الإنساني خارج إزمير؛ قام التلاميذ بمهاجمة المدير الجديد السيد صدقي، فأسمعوه من الكلام اللاذع ما لا يطيقه. ومن ثم ترك منصبه ولم يرجع إلى المدرسة قط. ففسَّر مسؤولو الجمعية ذلك بأن الأستاذ فتح الله هو وراء الحادث، وهو منه بريء، بل لقد آلمه جدا أن يتصرف الطلبة بهذا السلوك السيء ضد مديرهم الجديد. ثم قرر المسؤولون بعد ذلك توظيف مدير آخر بدل السيد صدقي. ولكن العلاقة بينهم وبين الأستاذ فتح الله ساءت جدا بسبب ذلك الظن السيء!

ثم وجد فتح الله أنه لا مستقبل له في مدرسة سوق الكَسْتَناء، خاصة وأن الإداريين فصلوا بينه وبين الطلبة. وإنما الروح الذي يحيا به الرجل هو العيش مع الطلبة. كما أن جُلُّ الأساتذة كانوا يحسدونه بجهلهم، ولم يكونوا يسمعونه كلمة خير، بل كان يتلقى معاملتهم السيئة، ويصبر على

كلماتهم الجارحة، فيكتمها في نفسه وكأنما يمضغ أوراق الصبار. فقرر هو أيضا مغادرة وظيفته بالمدرسة، فلعل الله يجعل له من بعد عسره يسراً.

عندما كان ينقل أمتعته ليلاً من مدرسة سوق الكَشْتَناء، كان الطلبة يساعدونه، وقلوبهم منكسرة حزينة، كانت قسمات وجوههم جميعا تتساءل بصمت: إلى أين تذهب يا أستاذ؟ ولمن تتركنا؟ أما هو فقد كانت الدموع تنسكب على خديه. لقد كان أولئك الطلبة جزءا من كيانه، وكان كوخه الخشبي الصغير مثل بعض أطرافه.. وها هو الآن يغادرهم جميعا مكرها، يغادرهم وهو يشعر كأن بعض أعضائه تنفصل عن جسده. لقد شهد ذلك الكوخ تأسيس عمل إسلامي جديد، وتخريج أطر دعوية كان لها أثر كبير على العمل الإسلامي بربوع تركيا كلها. هنالك انعقدت مجالس عدة ليال للتخطيط لأمر الدعوة وترتيب أمر المخيمات، ومجالس أخرى أهم لتربية مجموعات عديدة من طلبة الجامعات وغيرهم، وإعدادهم لتحمل رسالة الإيمان بتركيا.

الحاج أحمد تَتَارِي كان أحد أعضاء الجمعية، وكان يحب فتح الله كثيراً، لكنه لم يكن يفهم لماذا أرادت الجمعية أن تفصل فتح الله عن طلبته، مما يبين أن ذلك كان مجرد مؤامرة مدبرة من بعضهم، أو ممن يوالون جهاز الاستخبارات. فكان أن اكترى فتح الله مع بعض محبيه منزلاً كبيراً كثير المرافق، بحي "كُوزَلْ يَالِي" يسع أربعين طالباً.. فجعلوا فيه أقساما للدراسة وداخلية للطلاب. هنالك أدرك رئيس الجمعية السيد "عَلِي رِضَا كُوَنْ" الخطأ الفادح الذي وقع فيه أعضاء جمعيته! وأن الجمعية إنما جُرَّتْ إلى ذلك بطريقة خبيثة، فجاء إلى الأستاذ فتح الله مسرعاً، وطلب منه

الرجوع إلى مدرسة سوق الكَسْتَناء؛ على أساس استعادة جميع صلاحياته الإدارية والتربوية، راجيا منه تناسي الماضي. لكن السهم كان قد انطلق من القوس، فأصاب ما أصاب من كبد ضحيته، ومن ثم لم يستطع فتح الله العودة إلى المدرسة بعد ذلك أبداً! وما هي إلا أيام حتى كانت مدرسة فتح الله الجديدة قد امتلأت بالطلبة، وأصبحت مدرسة سوق الكَسْتَناء خاوية على عروشها. وندم أعضاء جمعية الكَسْتَناء على ذلك ندما شديداً. فلقد كانوا يعلمون جميعا أن فتح الله عاش بينهم على أعلى درجات الإخلاص لعمله، وعلى أعلى درجات الورع في إدارته. فلم يأكل قط ولا كسرة خبز واحدة من طعام المدرسة، ولا استعمل ورقة واحدة من أوراقها، حتى صابون الميضأة الموضوع رهن إشارة الجميع كان يشتريه من ماله الخاص، وينفق على نفسه في جميع حاجاته من خالص رزقه، مهما كان قليلاً. فيا لتعس قوم فرطوا في فتح الله... أي بركة أضاعوا على أنفسهم... وأي خسارة خسروا..!

كانت شهرة الأستاذ فتح الله قد طارت إلى كل مكان، وصار أهل الفضل والصلاح في إزمير وضواحيها كلهم يوالونه؛ حتى إن بعض الأحزاب السياسية آناذاك حاولت استقطابه، فعرضت عليه مناصب رفيعة، لكن فتح الله يعلم أنه لم يخلق لذلك، وإنما متعته الوحيدة هي أن يجلس إلى طلابه يبثهم ذوب روحه ووجدانه. وقد كان رجاؤه أن يدفن في عرصات سوق الكَسْتَناء، قريباً من المدرسة حتى يسمع من قبره أصوات الطلبة وهم يدرسون!

دخان الفتن

قسم فتح الله أعماله الدعوية إلى ثلاثة أقسام رئيسية، الأول: تدريس طلبة العلوم الدينية، والثاني: الوعظ في المساجد. والثالث: عقد مجالس الصحبة الإيمانية التربوية كل ليلة في البيوت الخاصة. وكان طلبة الجامعة هم أغلب من يحضر مجالسه سواء في المساجد أو في البيوت. كما كان بين هذا وذاك جميعا ينهمك كعادته في قراءة الكتب.

ولقد ابتليت الجماعات الإسلامية بتركيا آنذاك بفتن الفرقة والاختلاف، إلى درجة لا تطاق، فكان هَمُّ فتح الله وقتَها هو العمل على درء الفتن، والحد من نار الاختلاف. وكانت ثمة جماعات ذات خيارات سياسية عنيفة، تستجيب بسرعة للاستفزاز، وتتصرف بمنطق ردود الأفعال! أما طلاّب النور فبعد وفاة مؤسسها الأول الأستاذ بديع الزمان النورسي سنة ١٩٦٠م، فإنها وإن حافظت على هدوئها الدعوي إجمالا، ومنهجها المفارق للسياسة وأهلها؛ إلا أنها هي أيضا أصيبت بداء الاختلاف في ذاتها. وكان لذلك أثر سلبي على الوضع الإسلامي بالبلاد. فما أن مضى على موت النورسي رحمه الله نحو عشر سنوات حتى كانت الفتنة قد بلغت درجة من الشحناء قابلة للاشتعال في أي حين!

كما كان الصراع على العموم قد اشتد بين أغلب الأحزاب والتنظيمات السياسية باختلاف أنواعها ومشاربها. وكانت بعض الأيدي الخفية تشعل نار الفتنة بين الإسلاميين واليمينيين المتطرفين، وكذا بينهم وبين الشيوعيين. وكانت جدران الشوارع والأزقة سبورات دائمة لتدوين شتى أنواع الشتائم والسباب ضد هذا الاتجاه أو ذاك، أو لكتابة شعارات النصر والتأييد لهذه الجماعة أو تلك، بل تطور الأمر إلى حد الاغتيالات

والاغتيالات المضادة، وتلطخت الأجواء بالدماء والثأرات، وصار الوضع ينذر بالخطر. وكان فتح الله واحدا من قلة من الدعاة الذين كانوا ضد هذه الأساليب، والذين يوقنون بأن رفع الشعارات التهييجية لا فائدة منها على الإطلاق. ولم يزل في مجالسه الخاصة والعامة يوصي بالحكمة والتعقل، والاعتدال وحسن التدبير. ولقد سجل التاريخ أن طلاّب النور -رغم ما أصابهم من اضطراب- كانوا أبعد الناس عن التورط في مثل تلك الزلات.

إن الذين كانوا يحسنون قراءة الأحداث كانوا يدركون بأنها كانت تتهيأ لانقلاب عسكري وشيك. إن اللغة التي صارت سائدة في الأوساط السياسية والأحزاب بمختلف توجهاتها، وطريقة الحوار السياسي الخشن من التهديدات إلى الاغتيالات، كان عبارة عن نار يؤججها أصحابها لتسويغ حدوث انقلاب في البلاد. والذين عاشوا انقلاب الستينات في تركيا يعلمون أن الغيوم التي ساقته هي عينها التي تلبدت في سماء البلاد في بداية السَّبعينات.

انقلاب عسكري ثان، يفتح أبواب السجون..!

كان الانقلاب العسكري الثاني الذي حدث بعد عشر سنوات كوامل من الانقلاب الأول، الواقع سنة ١٩٦٠ -بغض النظر عن أسبابه- ضربة قوية للصف الإسلامي بتركيا، لكنها ضربة وإن أدخلته في إغماءة شديدة، إلا أنها أيقظته بعد ذلك على رؤية أصفى وأقوى.

قال الراوي:

في يوم الجمعة ثاني عشر مارس لسنة ١٩٧١م، على الساعة الواحدة زوالا، أذيع خبر الانقلاب في المذياع، وسيطرة الجيش مباشرة على إدارة الحكم، وإعلان حالة الطوارئ بالبلاد.

ثم بدأت حملة الاعتقالات بعد مدة قصيرة من إعلان الانقلاب. فتم اعتقال كثير من زعماء اليسار، وقادة الجماعات الإسلامية، وكثيراً من النشطاء البارزين في كلا الاتجاهين. وبقي الاعتقال مستمرًّا على قدم وساق حتى امتلأت السجون بالرجال والنساء!

إن الدويلات الإسلامية تعاني معاناة شديدة بسبب استعلاء الغرب عليها. وإنها إذا كان الله قد سلط عليها في الماضي "جنكيز خان"، و"تيمور لنك"، و"هولاكو"؛ فإنه اليوم يسلط عليهم الغرب؛ عسى أن تستفيق من غفلتها وسكرتها بأهوائها وشهواتها، وترجع إلى أصلها. وإن هذه السُّنَّةَ الإلهية لتجري على الجماعات الإسلامية في كل مكان، وفي تركيا في ذلك الزمان.

لقد استشرت الغيبة بين أعضاء الجماعات المختلفة بشكل رهيب، بل حتى بين أعضاء الجماعة الواحدة، وصار سوء الظن هو الأصل في معاملة المخالفين في الرأي، ولو كانوا من أهل الفضل والخير. وكانت الفرقة لا تزداد إلا اتساعا، والهوة لا تزداد إلا عمقا.

إن موضوع الغيبة كان من أهم الآفات التي حاربها الإسلام كثيراً، وركز عليها في تربية الجماعة الإسلامية. فالقرآن يشبّه الاغتياب بأكل لحم الإنسان المسلم. وكانت تركيا في تلك المرحلة تعاني من وفرة الكلام، وتضخم عبارات النقد والنقد المضاد في الأوساط السياسية والإسلامية إلى حد الفوضى. فكان أن تدخّل الجيش في الحياة السياسية

عبر انقلاب عسكري بذريعة السيطرة على الوضع الأمني، ووضع حد للفوضى، فخنق البلاد كلها بكف من حديد شديد، وأخذ كل مواطن نصيبه من ضرر الانقلاب العسكري.

في تلك الظروف كان السيد رامز أفندي قد جاء لزيارة ابنه فتح الله في إزمير.. وفي يوم فاتح مايو ١٩٧١، جاء موعد عودته إلى أرضروم.. كان الوقت ليلاً، فجهز فتح الله حقيبة والده بيده. ثم بعد قليل حضر صديقه الأستاذ مصطفى أسوطاي، فأوصلهما بسيارته إلى محطة الحافلات. بعد وداع الوالد، عاد فتح الله مع صديقه نحو المنزل، فعرجوا في الطريق على بعض بيوت الطلبة، فحذَّرهم فتح الله من احتمال مباغتة جهاز الأمن لهم في أي وقت، ونبههم إلى أنه يمكن أن يأخذوهم وكتبهم في أي لحظة. ثم انصرف الرجلان، وبينما هما يطويان الطريق بسيارتهما صدما كلبا أسود بقوة، فمات الكلب، فأوَّلَ فتح الله تلك الإشارة بأنهما ربما سيصطدمان بشيء آخر أخطر!.. فاتجها نحو منزل الأخ مصطفى بيرْليك. ولما بقيت نحو مائتي متر من المنزل، طلب فتح الله من سائق السيارة مصطفى أَسُوطَايْ أن يتوقف، وكان ابن أَسُوطَاي "رِضوان" معهما.. كان طفلا يدرس في الابتدائية آنذاك، فطلب منه فتح الله أن يذهب إلى ذاك المنزل، ويتحسَّسَ هل هناك من أحد؟ فلما عاد قال: "إن فيه رجالاً يفتشون عن شيء!" فعلم الرجلان أن الشرطة جاءت للقبض على السيد "مصطفى بيرليك"! عندها طلب فتح الله من مصطفى أَسُوطَايْ أن يوصله إلى منزله. وفي الطريق صدمت السيارة كلبًا أسود آخر، فتوقع الأستاذ أن الشرطة تنتظره في بيته. وكذلك كان، فما أن دخل الرجل البيت حتى لاحظ أن جهاز الأمن قد فتشه شبرًا شبرًا، وقد جمعوا كثيراً من الأشياء وسط

المنزل. ووجد الطالبَ "صلاحَ أطَلاي" ينتظره، كان هذا الشاب يزوره عادة عند آخر كل أسبوع، ثم يبيت عنده. وفي ذلك اليوم كان الطالب قد أعد لأستاذه طبقا من الأرز. ثم سمع فتح الله رجالَ الشرطة من داخل إحدى الغرف، يقولون له: "أهلا..!" ثم استمروا في التفتيش!

لقد مر على تركيا حينٌ من الدهر، كان مجرد قراءة القرآن يُعَدُّ جنحةً يعاقب عليها القانون، وظلت كليات رسائل النور للنورسي ممنوعة التداول لسنوات عديدة؛ ولذلك فقد كان فتح الله ذا وعي أمني دقيق، فلم يكن يترك في مجالسه ولا في بيته أَثَراً واحداً، أو بصمة صغيرة يمكن أن تدينه، ولا أي شيء يصلح ليكون تهمة ضده. ولم يكن ساعتها قد ترك في مكتبته ولا ورقة واحدة من رسائل النور، اللهم إلا كتابا للمودودي، رآه فوق مكتبه، فألقى عليه جبته بهدوء وأخذه، وبحجة الذهاب إلى المرحاض انزوى في مكان ما من البيت وأخفاه.

وبعد تمام تفتيش المنزل صادر رجالُ الشرطة أربعين كتابا، لكنهم لم يجدوا من بينها شيئا يصلح لإدانة الرجل. سألهم فتح الله أثناء التفتيش: هل يزعجهم إن هو أكل قليلاً؟ فقالوا له بنوع من السخرية: "بل كُلْ كثيراً، لأن موعد عودتك إلى بيتك غير معروف!.."

وهناك في المعتقَل العسكري، أدخلوه غرفة، فحلقوا شاربه وشعر رأسه، ثم صوروه من جهة وجهه، وقفاه، وصفحة جانبه. طلب فتح الله من المأمور العسكري وَضُوءاً، فأحضر له ماءً قليلاً في إناء معدني وَسِخٍ، وقدمه إليه بطريقة خشنة. ثم توضأ الإمام المعتقل وصلى العشاء هناك. بعدها أدخلوه زنزانة واسعة، ففوجئ بوجود السيد "مُصطفى بِيرْلِيكْ"، والإمام "شَعبانْ دُوزْ"، و"هَارون الرَّشِيد تُيْلُو"، وبعض الشبان من القوميين..

كانوا كلهم مهمومين مغمومين... لم يكن هناك فرق في وضعيتهم جميعاً، فكلهم كانوا مثله بغير شوارب ولا شعر رأس.. حتى الإمام شعبان حلقوه، وجَزُّوا لحيته الطويلة. لما لاحظ فتح الله ما بإخوانه مِن غمٍّ حاول أن يدخل عليهم السرور، ويقلب جو السجن إلى أنس ومسامرة. وقد نجح فعلاً بما لديه من ذكاء لطيف وسرعة بديهة.. فكانت تلك الليلة من أجمل الليالي في حياتهم، لا ينسونها أبداً!

لما أدخلوهم الزنزانة نزعوا منهم كل شيء، المصاحف، وجوشن الأدعية وغيرهما. كان فتح الله بالطبع يحفظ كتاب الله، فكان يترنم به بالليل والنهار، لكنه لم يكن يحفظ "جَوْشَنَ الأدعية"، فندم على ذلك كثيراً!

في اليوم الموالي أحضروا شخصين آخرين إلى السجن، لكن كانا ينتميان إلى تيارات عنصرية. ثم أحضروا عدداً من الأساتذة المتدينين، وعددًا من موظفي ثانوية الأئمة والخطباء. كان من بينهم السيد نظام الدين، والسيد رجَب أستاذ الرياضيات. فأما السيد رجَب فقد كان منخرطا مع فتح الله في جمعية مُكافحة الشيوعية، وأما الأخ نظام الدين فقد انهار نفسيا بسبب الاعتقال، وزُلزل زلزالاً شديدًا، إضافة إلى أنه كان يعاني أصلا من مرض القلب؛ وقد تأثرت ابنته بسبب اعتقاله تأثراً بليغاً إلى درجة أنها حاولت الانتحار، فزاد ذلك من مرضه وحزنه. فكان فتح الله وإخوانه يواسونه ويؤازرونه بعاطفة عميقة.

في يوم آخر اعتقلوا الطبيب الدكتور "كائِد بَكْ"، فضاقت الزنزانة بأهلها، فحولوهم إلى مكان يشبه مطبخاً فجعلوه سجنا لهم! هنالك أرسل فتح الله إلى صديقه "إسماعيل شَلَبي" رسالة سرية يطلب منه جَوْشَنَ الأدعية. وكان أن وصله "الْجَوْشَنُ" فعلاً خفية في مساء ذلك اليوم، ففتحه فتح

الله فجعل يقرأ وهو يبكي... وبقيت الجماعة في المعتقل زمنا من دون محاكمة. وكان هناك ضابط قصير بليد، سيء الطبع، كثير الشتم واللعن، وكان ينظر إلى السيد مصطفى بيرليك -وهو رجل في سن والده- ويقول له: "يا وغد! كيف تتحدث مع قائد مثلي وأنت جالس؟ أما أدَّيت خدمة التجنيد الإجباري؟ أما علموك هناك على أي هيئة ينبغي لشخص وضيع مثلك أن يتحدث مع قائد مثلي؟"

ورغم الظروف السيئة للاعتقال فقد أصبح ذلك المعتقل الكبير معسكراً ربانيا للذكر والعبادة والصلاة، وكان مشهد المؤمنين وهم يؤدون الصلاة به رائعاً مَهِيباً، يوقظ الفطرة الإيمانية ويغذّي الروح، حتى إن شخصين من التيار العنصري جعلا يقتربان من الإخوة شيئاً فشيئاً، ثم شَرَعَا في أداء الصلاة مع الجماعة، فاغتاظ لذلك باقي العنصريين!

في أول محاكمة تم إطلاق سراح جميع أفراد التيار العنصري. كما أُطْلِقَ سراحُ الأخ رجب أستاذ الرياضيات، والأخ نظام الدين المريض بالقلب. ثم أُعِيدَ السيد فتح الله إلى السجن مع الدكتور "كائِد بَكْ"، و"مُصطفى بِيرْلِيكْ"، و"هَارون الرَّشِيد تُيْلُو". في المحاكمة الأولى شاهد الإخوان أخاهم السيد "عثمان كَارَا" يتجول في قاعة المحكمة، فعلموا أنه استدعي كشاهد في تلك الجلسة، وفي نهايتها تم اعتقاله هو أيضا!

في جلسة أخرى حكموا بالسجن -بِمُدَدٍ مختلفة- على كلٍّ من هارون الرّشيد، ومُصطفى بِيرْلِيكْ، والدكتور كائِد بَكْ، والإمام شَعبان دُوزْ. وبعد ذلك تم استدعاء الأستاذ فتح الله، وكان يتنبأ لنفسه بنفس المصير..! ولذلك لم يتكلم أمام المدعي العام إلا قليلاً. كان بين يدي المدعي العام ملف مليء برسائل التهاني التي كان يتوصل بها فتح الله من أقاربه

وإخوانه في شتى المناسبات. فكانت كثرتها موضوع تحقيق من المدعي العام، كما كانت هناك مجموعة من التقارير عن مضمون دروسه العامة بالمساجد، وعن كل مجلس شارك فيه فتح الله؛ كما أن كثيراً من الإخوة المعتقلين علقوا كل تهمهم على مشجب فتح الله! فأثقلوا عنقه بجميع قضاياهم، وبذلك وضعوه على فوهة المدفع. نظر إليه المدعي العام ثم قال: ماذا تقول في كل هذا؟ فأجابه فتح الله بكل برودة ساخراً: إن رجال الاستخبارات كانوا في حاجة إلى شيء من العمل؛ فجعلوا يكتبون هذه الأشياء جميعها من محض خيالهم الواسع!

فغضب المدعي العام، وجعل يقرأ جميع وثائق التحقيقات، الواحدة تلو الأخرى.. كان المدعي العام يقرأ وفتح الله يسبح بفكره في العالم الأخروي، يتفكر في يوم الحساب الأكبر!.. حتى إذا أنهى المدعي كلامه انتبه فتح الله على الخلاصة الأخيرة، فإذا هي خاوية من أي دليل حقيقي رغم كثرة التهم والإدانات، اللهم إلا اعترافات إخوانه ضده، فقد كانت أثقل شيء يمكن أن يدينه. ولعلهم اضطروا للتوقيع على أشياء أمليت عليهم تحت عصا الوعيد والتهديد!

وهناك تذكر فتح الله رؤيا غريبة، كان قد رآها قبل ذلك بأشهر، فلم يعلم لها ساعتها تأويلاً.. كان ذلك بعد مغادرته لسوق الكستناء، حيث بدأ يلقي درسا بعد صلاة العصر في الحديث لطلبة معهد العلوم الإسلامية، وكان يحضره طلاب ثانوية الأئمة الخطباء، في مسجد بِحَيّ "كُوزَلْ يَالِي".. وكان الحضور كثيفا جدًّا.. وفي ليلة آخِر يومٍ من حَلقات تلك الدروس، رأى في منامه أنه يصلي بالناس صلاة العصر بذلك المسجد، فلما سلَّم عن يمينه رأى النبي ﷺ ينظر إليه بعينين مغرورقتين بالدموع. فكان فتح

الله يتساءل مستغربا: لماذا وجه النبي ﷺ يبدو هكذا..؟ ثم اتضح له فيما بعد بأن درس ذلك اليوم كان هو الحلقة الأخيرة من دروس الحديث، إذ لم يتمكن من استئنافه مرة أخرى؛ فقد وقع الانقلاب العسكري، وبدأت الاعتقلات في صفوف الإخوة! وهناك فهم معنى حزن النبي ρ في الرؤيا.

بعد إدانة الأستاذ فتح الله بالسجن أعادوه إلى معتقله الذي كان فيه في البداية، ثم جعلوا بعد ذلك يحوّلونه من سجن لآخر.

في بداية الأمر كان السجناء المتدينون مع اليساريين في زنزانة واحدة، فلما كثر عدد المتدينين عزلوا كل صنف في زنزانة خاصة. ولم يزل عدد المتدينين في ازدياد حتى بلغوا أكثر من خمسين شخصا!

بعد ذلك أطلقوا سراح الدكتور الطبيب "كائِد بَكْ" الذي كان أردني الأصل، وكان يساعد سفراء بلده في بعض من الأمور. ويشهد له فتح الله أنه كان رجلاً صبوراً محتسباً. فعلى الرغم من كونه معتقلا في بلد غريب، وليس في وطنه، ورغم أن زوجته أسقطت جنينها بسبب كثرة المداهمات، فإن ذلك كله لم يحرك منه ولا شعرة ولم يزده إلا ثباتًا وتصميمًا!

أما السيد "هارون الرشيد تُيلُو" فقد كان رجلا حكيماً دائم الابتسامة، لطيف النكتة. قال مرة لفتح الله: "إننا يا أستاذ لم نستطع أن نتفق خارج السجن، ولو على قليل من الكثير المشترك، فسلط الله علينا الجيش، وجعلنا نتفق داخل السجن على كل شيء!"

الإمام شعبان مرِض في السجن حتى سقط من على فراشه، فرعاه الدكتور "كائِد بَكْ" حق الرعاية. وإنما كان سبب اعتقاله أنهم عثروا في بيته على ورقات من كليات رسائل النور.

أما الأستاذ "بَكْر بَرْق" فقد كان محاميا قديراً، كان يجهز مرافعته في السجن ليلاً.. ولم يكن ينام حتى يتم إعداد مرافعته. وأثناء المحاكمات ربما كان ينام ساعة واحدة أو أقل. كان شغله الشاغل هو البحث عن الأدلة وترتيب الحجاج. عندما يكتشف دليلاً ما يوقظ الأستاذ فتح الله من نومه، ثم يقول له: "أستاذ فتح الله! اسمع هذا الدليل!.. سوف أفحمهم به!" عند قراءته لكتاب كان أحيانا يسطر عشر مرات على نفس الجملة. كان الأستاذ "بَكْر" رجلا فعالا، وثاب الفكر، حيوي الوجدان.. كان يحب الصحابة –رضوان الله عليهم- جِدّاً، ولذلك كان يسأل فتح الله أحيانا هذا السؤال العجيب: "أيها الأستاذ! أنت أَدرَى بأحوال الصحابة؛ فبالله عليك! بأي صحابيٍّ جليل يمكنك أن تشبهني؟ أو بأيٍّ منهم يمكن أن أُذَكِّرك؟"

ففي تلك التجربة المريرة أدرك فتح الله أن الإنسان إنما تعرف حقيقته إبان الامتحان. ولم يزل يقول: "إن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ وضع مقاييس لمعرفة الإنسان، منها السفر معه، ومعاملته بالدرهم والدينار؛ إلا أنني أضيف إليها مقياسا آخر، ألاَ وهو أن تعاشره في السجن!"

فتح الله رجل ملهم، صافي السريرة، يحسن قراءة الإشارات.. في أحد أيام السجن، استُدعي السيد شعبان إلى المحكمة، وكان فتح الله مستلقيا على ظهره في الزنزانة، فلاحظ فراشة بيضاء تحط على رأس السيد شعبان، فخرجت معه هكذا ثم طارت في الفضاء.. فتفاءل فتح الله بإطلاق سراح صديقه، وكذلك كان. فبعد المحكمة مباشرة رجع، وجمع ملابسه وخرج!

وفي يوم آخر، استدعي فتح الله إلى المحكمة، وكان قبل ذلك مستلقيا على ظهره في الزنزانة، فجعل يفكر هل سيطلقون سراحه أم لا؟ فرأى على

السقف فراشة بُنّيّة اللون.. انتظرها طويلا لعلها تطير فتخرج من الشباك، لكنها لم تفعل! وكذلك كان! فقد أطلقوا عدداً كبيراً من المتديّنين، إلا هو وزمرة قليلة من إحبّته! فجعلوهم في سجن واحد مع سجناء اليسار!

كان عدد الشيوعيين في الزنزانة أكثر من المتدينين، ولذلك مهما تلطفوا في معاملتهم، كانوا يردون عليهم بغلظة وخشونة!

بدأ فتح الله يُهَرّبُ الكتب إلى داخل السجن، وكان يقرؤها خفية، ثم يجعلها تحت خشبة منزوعة من أرض الزنزانة. كانت المراحيض في ساحة صغيرة خارج الزنزانة، وكان الحراس يقفلون باب الزنزانة ابتداء من الساعة التاسعة ليلاً إلى السابعة صباحا. وكان ذلك يسبب حرجا شديداً للسجناء، لكن الضرورة تجعل الإنسان خلاقا ومبتكراً. فقد كان بعضُ مَن لا يصبرون على ذلك الوضع يتبوّلون في قنّينات خصصوها لذلك فيضعونها في شباك الزنزانة العالي، فتصطف تلك القارورات مثل رفوف الصيدلية في مشهد مخجل ومضحك في الوقت نفسه. كان فتح الله يمتنع عن تناول الشاي وجميع السوائل ابتداء من وقت العصر حتى لا يضطر إلى هذا الصنيع المخجل، فعصمه الله من ذلك طيلة مدة السجن. كان مدير السجن برتبة عقيد، وكان ينهى السجناء عن ذلك، ولكن أحداً لم يستجب له. فللضرورة أحكام... أما الحمام فلم يكن يتاح لهم إلا مرة في الأسبوع!

في أحد الأيام قُدِّمَ لفتح الله في طعامه بيضة، فتسببت له في حساسية شديدة كاد يكون فيها هلاكه! حيث أصيب بتقرحات مؤلمة في حجره، وضيق شديد في التنفس. وتركوه يكابد مصيره ولا أحضروا له طبيباً، مع العلم أنهم كانوا قد نزعوا منه أدويته يوم اعتقاله. في المقابل كان هناك سجين يساري قد مرض بسبب البيض أيضا، فكانوا يأذنون له بالخروج

ليتنفس خارج الزنزانة على الأقل. عندما تدهورت حالة فتح الله أُخذ إلى طبيب عسكري، فصادف أنه ممن كان يعرفه من قبل، فَسُرَّ بذلك جدّاً، فلما فحصه كتب اسمه ضمن من ينبغي أن يراه الطبيب مرة كل أسبوع.

كان رمي النفايات على مسؤولية السجناء، وكان ذلك موزعا عليهم بالدور حسب أيام الأسبوع، فكان كل واحد منهم ينتظر يومه بفارغ الصبر، لأنها الفرصة الوحيدة لرؤية الفضاء، واستنشاق الهواء الطلق، ولو لبضع دقائق!

في أحد الأيام كان الدور على السيد "بَكْر" المحامي، ولكن عندما نادوا على الزبالين كان هو نائما ولم ينتبهوا له، فتأثر لذلك كثيراً، إذ فاتته فرصة الاستنشاق ذلك اليوم!

كان السجناء يعانون من هجوم جحافل البعوض، خاصة في أشهر الصيف، فكانوا إذا أغلقوا نوافذ الزنزانة اختنقوا بشدة الحرارة، وصاروا كمن في فرن ملتهب! وإذا فتحوها امتلأت فضاء الزنزانة بسحب الناموس والبعوض! كان السيد "جول تكين" إذا ذهب لقضاء حاجته في المرحاض يرش في فضائه مبيداً للحشرات.. لكنه إذا تأخر قليلاً هاجمته جحافل جديدة من البعوض فانتقمت منه شر انتقام، فلا يقوم من مكانه حتى يكون البعوض قد مزق جلده تمزيقا! كان السجناء يستيقظون كل صباح، وقد انتفخت وجوههم وأطرافهم بسبب مئات اللسعات الشديدة!

حوار مع المجاذيب!

بعد ثلاثة أشهر من السجن أحضروا مجموعة من "المجاذيب" إلى

زنزانتهم. جماعة "المجاذيب" في تركيا تكرر تاريخ القرامطة والشيعة الروافض. فكلهم كانوا يدعون محبة سيدنا علي رضي الله عنه، ويجعلون أهواءهم ورغباتهم هي أساس الدين. وهؤلاء المجاذيب يشبهونهم تماماً. كانوا يجتمعون على شخص هو إمامهم، وشيخ طريقتهم. وبسبب بعدهم عن منهاج النبوة كانوا يكرهون الآخرين ظانين أنهم هم فقط على الصراط المستقيم. ولذلك صار التعايش معهم في السجن مشكلة كبرى. فمهما حاول فتح الله وأحبّته التقرب منهم كانوا يزدادون نفوراً. ولعلهم لم يكونوا يعتبرونهم حتى مجرد مسلمين لهم حق الإسلام. فلم يكونوا يقبلون بإمامة أحدهم في الصلاة سواهم، ولا بأكل طعام يأتي به غيرهم. وطلبا للتقليل من الاختلاف أمر فتح الله أحبّته بالصلاة خلفهم. لكن إمامهم كان جاهلاً، فحتى سورة الكوثر لم يكن يقرؤها بصورة سليمة. فأما أركان الركوع والسجود فلم يكونوا يقيمون منها شيئا. فكان الإخوة يصلون معهم ثم يعيدون تلك الصلاة فرادى، درءاً للفتنة داخل السجن. لكن بعض الإخوة الآخرين رفضوا الصلاة خلف المجاذيب، فكانوا ينعزلون بصلاتهم في جماعة مستقلة، مما كان يشحن السجن بالتوتر الشديد أحيانا. كان فتح الله يحاول فتح حوارات مع المجاذيب تقريبا لهم وتأليفا لقلوبهم، لكنه رغم كل مواهبه العلمية والإدارية لم يفلح في شيء من ذلك. فكلما تحدث بحقيقة إيمانية من القرآن أو من السنة قلبوا الحجاج إلى سياق مختلف تماماً. وأما أكثر استدلالهم فهو بأقوال الجن وأفعالهم. وكذلك كان مدار حديثهم صباح مساء، فالجهل الأعمى كان هو أساس تفكيرهم؛ ولذلك لم يصل فتح الله معهم إلى نتيجة البتة!

معركة مع المجاذيب!

في يوم من الأيام اشتد الجدال بين الأستاذ بَكْر وأحد المجاذيب، فتطور النقاش إلى حد الشجار! كان المجاذيب يراقبون الوضع، حتى إذا رأوا الشجار قد بدأ هاجموا السيد بَكْر، وانقضوا عليه جماعة! كان عددهم ستة! فضربه أحدهم بكرسي على أم رأسه! وتدخل بعض الإخوة في المعركة فاختلط الحابل بالنابل. كان فتح الله وآخرون يحاولون فك الخصام؛ فنالهم حظهم من اللكم والضرب، وانقلب الوضع في الزنزانة إلى حرب حقيقية! فأسرع فتح الله تجاه النافذة وجعل ينادي الحرس العسكري، ففتح الحراس الباب بقوة فانكمش المجاذيب إلى زاويتهم. حارس السجن نظر في الجميع نظرة غاضبة، ثم قال مستنكراً: "أهكذا يكون المسلمون؟" أما المجاذيب فما كان لكلامه ذاك على نفوسهم من أثر، لكن فتح الله شعر وكأن أحداً طعنه في صميم قلبه. وظل يتألم من تلك الجملة زمنا طويلاً، ولكن عزاءه أنه منع جريمة قتل كانت على وشك الوقوع!

بعد الحادثة عزلوا أفراداً في سجن انفرادي مع أنهم لم يكونوا هم السبب الأول في حصول الشجار، وظل الذين سببوه حقيقة مع الجماعة في الزنزانة. كان فتح الله يشعر أنه يعيش عينة من الظروف نفسها التي ما يزال العالم الإسلامي يعيشها منذ أربعة قرون. وكان يقول في نفسه: حقا إن التاريخ يعيد نفسه!

كان من ضمن المجاذيب شخص اسمه "عارف"، كان لين الطبع إلى حد ما. التقى فتْحَ الله مرة في الطريق بعد خروجهما من السجن، فجاء نحوه مسرعاً ثم قال له: "سامحنا يا أستاذ، لقد آذيناك!" قالها ثم انطلق إلى سبيله. ولكن إخوانه كانوا متصلبين، بل إلى الشراسة هم أقرب!

مع الشيوعيين في السجن!

قلة منهم كانوا عقلاء، وأما أغلبهم فقد كان حقوداً، يهددون الإخوة بين الفينة والأخرى، ويستفزونهم صباح مساء. كانوا يجعلون حركة المؤمنين في الوضوء والصلاة قضايا يحتجون عليها. فهذا يشتكي مما يحدث بالأرض من "زلزال" بسبب السجود، وآخر يشتكي من صلاة الفجر، أو من تهجد هذا أو ذاك. ورغم ذلك كان فتح الله يحاول تكوين جو من التعايش معهم. لكنه كان يضطر أحيانا للوقوف ضد بعضهم علنا، مثلاً سمع مرة أحدهم يسب الله جل جلاله، ويسب النبي ﷺ..! وسمعه أيضا "بَكْر بَرْق" المحامي، فذهب يشكوه عند الإدارة، لكن الشيوعي أنكر ما نسبه المحامي إليه! فاستشهد المحامي عليه فتحَ الله، فشهد عليه بذلك أمام المسؤولين!

حتى عندما كانوا منعزلين في زنزانتهم فإنهم كانوا إذا أقاموا الصلاة وشرع الإمام في التلاوة بدأ الشيوعيون يدقون الجدار بقوة من زنزانتهم المجاورة، مع أنهم لا يكفون عن الغناء وعزف الموسيقى بأعلى أصواتهم، ولا يستنكفون عن لعن الدين والوطن وجميع المقدسات...

أُذِنَ للسجناء يوما في الخروج إلى ساحة السجن لتنفس الهواء، فسمع الإخوة خبراً في الراديو مقتضاه أن اليمينيين في أندونيسيا غلبوا اليساريين. فعلق السيد "بَكْر" المحامي قائلا: "إننا سنغلبهم هنا أيضا إن شاء الله!" فسمعه بعضهم وتوتر الجو توتراً رهيباً، وجعلوا يخططون للهجوم على المتدينين جميعا، لكن الله سلم فلم يتم لهم ما أرادوا. ولو فعلوا لما تدخلت الإدارة إلا عند ختام المعركة، ولما حاسبتهم على شيء من ذلك. كان الجو قابلا للاشتعال في كل وقت وحين! وربما أدى إلى قتلى في

كلا الطرفين! ولتفادي ذلك كان فتح الله يبذل مساعي كبيرة. فالرابحون من الفتنة دائما هم الشيوعيون!

السجين الخطير

في الأيام الأخيرة للسجن أضيف على زنزانة المتدينين رجل اسمه "قادِر قَيْمَازْ". كان رجلاً خطيراً، فقد كان عضوا في عصابة تسرق البنوك! وكان قد سرق أكثر من أربعة ملايين ليرة! واتقاء لشره من جهة، ثم تأليفاً لقلبه من جعة ثانية قربه فتح الله، فجعل فراشه بجانبه، خاصة وأن هذا الرجل كان بيدقا بيد غيره، ويمكن تحريكه بالسوء في أي وقت. فقطع فتح الله الطريق بذلك على الشيوعيين حتى لا يستقطبوه إليهم. واكتشف فتح الله أن لديه قابلية كبيرة للتدين، فجعل يتدرج به في مفاهيمه شيئا فشيئا حتى توضأ وقام للصلاة، مع أنه ما صلى في حياته قط ولا صام. ثم صار نادما على ما فعل، وربما صرح لفتح الله ببعض مخططات اليساريين!

في سجن "البيت الأبيض!"

قضى السجناء أغلب الأيام الأخيرة في سجن "بادملي"، وبعد عدة أيام حولوهم إلى سجن عسكري آخرن موجود في "شِيرِين يَرْ"، كانت بناية هذا السجن مصبوغة باللون الأبيض، فكان المتديّنون يتندرون بذلك ويسمونه "البيت الأبيض!".. كان منظره من الخارج عصري المعمار جميلاً، لكنه من الداخل كان عبارة عن دهليز ضيق وعميق لا تدخله الشمس إلا في منتصف الظهيرة، فتبقى لحظات ثم تغيب. كان قد بني لغاية الحبس

الانفرادي. ولذلك فقد كان الحراس يعطونهم الطعام من تحت الباب، وكان المرحاض في الداخل، والماء به قليل؛ ولذلك كان كريه الرائحة منتنا، ولا أمل في الخروج لتنفس الهواء الطلق!

لم يبق من الإخوة في السجن سوى شخصين اثنين فقط: محمد فتح الله، ومصطفى بيرليك. ولذلك جعلوهما في زنزانة واحدة مع "قادِر قايْماز"، وأحد اليساريين. وكان شهر رمضان قد حلّ. فكانا يصومان، فجعل "قادر" يصوم معهما. فلما علم رفاقه الشيوعيون بذلك قاطعوه شر مقاطعة!

كان لـ"قادِر" صديقة يهودية، فجاءت تزوره يوما، فاكتشفت أنه صائم، فقطعت علاقتها به. وقد أثر ذلك في نفسية قادر كثيراً، وازَّلزلت معنوياته! وكان فتح الله أكبر مواس له، فحتى بعد خرج الأستاذ من السجن لم ينس صديقه "قادِر"، فقد زاره مرتين محملا بالهدايا.

حزن شيوعي!

في أحد الأيام كان اليساريون حزينين جداً، ومن حين لآخر ترتفع أصواتهم بالبكاء، حتى إن حارس السجن لما دخل عليهم طردوه، وأقفلوا الباب خلفه، ثم أسندوه بسرير. وازداد توترهم تجاه الأخوين فتح الله ومصطفى بيرليك. حتى قال مصطفى لصاحبه: "أخشى أن يتخذونا رهائن!" فقال فتح الله: لا فائدة من اتخاذنا رهائن، لأننا لا نساوي عند الإدارة شيئاً! وبعد أيام فهم الأَخَوَان لماذا بكى الرفاق!

فقد كان هناك شقيقان قياديان من العيار الثقيل هما "نديم" و"إبراهيم"، كانا من أركان اليسار المتطرف في تركيا، وكانت الشرطة تبحث عنهما.

أما إبراهيم فقد قتل في اشتباك مع الشرطة في إسطنبول، وكان يظن أن نديم أيضا قتل في ذلك الاشتباك! ولذلك بكى الشيوعيون كثيراً في السجون. لكن بعد ذلك بأيام تم القبض على الرفيق "نديم" في إزمير، فأحضروه إلى سجن "بادملي". كان "نديم" رجلا فوضويا، لا يأبه للقانون، ولا يعرف معنى الانضباط، ولذلك كان التحقيق معه بالتعذيب. بيد أنه كان قويا جلداً، فلم يستطيعوا أن يأخذوا منه ولا كلمة، حتى إنهم كانوا يجعلون الملح على جروحه لزيادة آلامه، ولكن دون جدوى. وخلال شهرين أو ثلاثة كان لا يستطيع المشي بسبب الجروح والقروح، وإنما كان يقفز مثل الضفدعة قفزاً. وكان فتح الله -رغم الخلاف العقدي العميق بينهما- يتأسف لوضعه ويشفق عليه!

مهزلة المحاكم

كانت المحاكم وقتها تثير الأعصاب؛ ففي تلك الأثناء ظهر نوع من الأبطال رخيصي الثمن. هؤلاء كان وراءهم شيئان، الأول: إخوان يشكون إخوانهم المؤمنين، وينتقمون منهم؛ بسبب حزازات قديمة. والثاني: إخوانٌ يقبلون كل ما يسند إليهم مثل اليساريين، ولو أن يصبحوا عملاء للاستخبارات قصد الإفراج عنهم. ولذلك لما بدأت محاكمة فتح الله، ظهر العديد من المخبرين، ومن الشهود المتطوعين، ليشهدوا ضده، وكان ذلك أشد ما يجرح مشاعر فتح الله!

تطوع بعض المحامين الأوفياء للدفاع عن فتح الله مجانا.. كما تطوع بعض الخبثاء للشهادة ضده بالزور. كان "المجاذيب" من أكثر الناس ضررا

على المتدينين فقد شهدوا زوراً ضدهم في المحاكم، بل اتهموا رجالا أبرياء حتى من تهمة الدعوة الإسلامية نفسها، وإنما بعضهم كان يحضر دروس الوعظ والإرشاد ليس إلا!

لكن العلقم المر الذي لا ينسى فتح الله غصته، هو أن بعض أصدقائه في جمعية سوق الكَسْتَناء شهدوا ضده في المحكمة!

كان هناك مجذوبان اثنان يترصدان حركة المتدينين في السجن، ويوصلانها إلى إدارة السجن. كان البليدان يظنان أن ذلك في مصلحتهم، لكنهما كانا ضمن الذين حصلوا على حكم ثقيل من هيئة المحكمة، فظلوا في السجن سنين عدداً. كان الإخوة كلما ذهبوا إلى المحاكمة سبب لهم المجاذيب بشهاداتهم المنكرة مشاكل لا حصر لها، حتى أصبحوا ككابوس يزعجهم في كل مكان! وعجز الإخوة عن إيجاد طريقة للتغلب على مكر المجذوبين البليد!

دعاء شجاع!

كان في المحكمة قائد عسكري متقاعد اسمه "محمد شَطَلْ قَيَا" كان ضمن الهيئة الإدارية لمدرسة سوق الكستناء، فلما سألته هيئة المحكمة عن شهادته عن المخيَّمات، تبنّاها وقدّم خطابا أبكى به فتح الله وأحبّته! فكان مما قال بصدق وإخلاص: "إن هذه المخيمات كانت تابعة لنا، والأستاذ إنما كان موظفا عندنا! لقد ذهبت إلى المخيم، ولم أرَ العمامة إلا على الإمام والمؤذن فقط."

كان المحقوقون قد أروا من قبل للأستاذ فتح الله صوراً من هذا المخيم،

تظهر فيها عمائم؛ فطلبوا منه تفسيراً، فقال لهم إن الإمام والمؤذن هما فقط من لبس العمامة بالمخيم، فتطابق كلامه مع كلام ذلك القائد دون سابق تنسيق. ثم استأنف القائد العسكري المتقاعد شهادته قائلاً: "ومنذ أن جاء الأستاذ فتح الله إلى إزمير لإلقاء الدروس، جلست بين يديه، فانتفعت به كثيراً؛ بل إنني أسأل الله أن يخرج من السجن في أقرب وقت ممكن، كي أستمع إلى موعظته من جديد!" وليس ينسى فتح الله شهادة هذا الرجل! فقد كان عسكريا متقاعداً، وكان الوضع الأمني في غاية الخطورة! لكنه قال كلمته بشجاعة نادرة عز وجودها بين كثير من الإسلاميين!

وفاةُ عَمٍّ غَالٍ

لما كان فتح الله في سجن "بادملي"، زاره أبوه "رامز أفندي"، وبقي شهراً في إزمير رجاء أن يطلق سراح ابنه قبل أن يعود إلى أرضروم. فشهد أربع محاكمات، ولما لم يطلقوا سراح ابنه بعدها اضطر للعودة إلى أرضروم، فعاد إلى أهله كئيباً محزوناً!

أما زيارته الأولى فقد كانت بالنسبة لفتح الله مليئة بالأسى والحزن العميق، وبكى بعدها كثيراً..! إذ لم يستطع ملامسة أبيه، ولا تقبيل يده، فقد كان بينهما جدار عال من الأسلاك. وإنما جعل يسأله فيجيب وسط ضجيج السجناء وأهاليهم:

- كيف أنت يا أبي؟ وكيف هي أمي؟

- أمك سافرت إلى البادية..

- ماذا حدث..؟

- عمك أنور مريض جِدّاً!

قالها ثم اغرورقت عيناه بالدموع، ففهم فتح الله أن عمه المحبوب قد توفي، فبكى مع أبيه كثيراً. كان فتح الله يكن لعمه أنور حبًّا كبيرًا، فقد كان أصغر من والده بنحو ثمان سنوات، وتوفي رحمه الله في حدود الستين سنة. وقد علم فتح الله بعد ذلك أن عمه مرض بسبب حزنه على اعتقاله. فقد كان فتح الله كواحد من أعز أبنائه. ولذلك فقد عاد إلى زنزانته وصورة أبيه الباكية لا تفارق خياله. فلم يستطع هو أيضا التوقف عن النشيج، فجعل إخوانه يواسونه بحرارة!

أما المسيح أخو الأستاذ فتح الله فقد كان يأتي لزيارته مراراً. وكذلك كثير من أصدقائه وأقاربه.

السراح الأخير

في يوم من أيام شهر يوليو، مُوَافِقٍ لليوم السادس والعشرين من رمضان المبارك أُخْرِجَ الأَخَوان إلى المحاكمة مرة أخرى. في هذه الأثناء حصل شيء لم يكن في الحسبان، وهو أن قاضي التحقيق قام فقال: "إنه مادام قد أخلي سبيل الأشخاص الآخرين؛ فلا مانع من إطلاق سراح الأستاذ فتح الله ومصطفى بيرْليك أيضاً!" ففوجئ الرجلان بذلك كثيراً، وعلما أن المحكمة قد قررت إطلاق سراحهما.

في تلك الأيام كان فتح الله قد رأى النورسي في المنام، كان يلبس سلهاماً أسود، ويقف أمام السجن، فجعل النُّورْسِيّ يُدْخِلُ محبّيه الواحد تلو الآخر إلى مكان يشبه القلعة. وفي رؤى أخرى قبل مدة قليلة من

إطلاق سراح فتح الله وصاحبه أنزلهما الأستاذ النورسي من قمة عالية وأوصلهما معاً إلى الكعبة!

بعد انتهاء المحاكمة رجع الأَخَوان إلى البيت الأبيض، وعند دخولهما الزنزانة، كانت وجوههما مشرقة بالسرور. وكان كل من رآهما من الحرس أو السجناء يهنئهما، ويقول لهما: مبروك! فأخذا ما لا بد منه من أمتعتهما وتركا للسجناء أشياء كثيرة، ثم خرجا بسلام. كانت تلك ليلة القدر من شهر رمضان المعظم!

كان السيد "صادق" ينتظرهما بسيارته في الخارج ليأخذهما إلى منزليهما. فلما استوى فتح الله راكبا بداخل السيارة تساءل في نفسه: إلى أين سأذهب؟ فلم يبق له بيت آنذاك في إزمير يأوي إليه. فلا شك بعد انقطاع تسديد ثمن الكراء استرد رب المنزل منزله. ولا هو يدري أين يكون قد وضع ما ترك فيه من متاع قليل؟ ففي ذلك اليوم كان بيت مصطفى بيرليك هو الاتجاه الوحيد الذي بإمكانه الذهاب إليه، لكن فتح الله -وهو الرجل المرهف الحس- فضل أن يترك صديقه ليخلو مع أولاده، فلم يذهب معه! وهناك تجلت له أمه الباكية وأبوه الجريح، فتوجه إلى محطة القطار مباشرة، فبات ليلته تلك على متن القطار الراحل نحو مدينة أرضروم!

وخرج الرجل من إِزْمِير كما دخلها أول مرة!.. لا يحمل سوى محفظة صغيرة في يده، وقلبه الجريح!

في اليوم الذي أطلقوا فيه سراح فتح الله كانت أخته الكبيرة "نور حياة" تجلس أمام منزلها بأرضروم حزينة.. فمر أمامها شخصان يتحدثان، فسمعت أحدهما يقول: "اليوم تخلصوا..!" فأولت ذلك الفأل بأنه سراح

فتح الله، وذهبت مسرعة إلى الوالدة فبشرتها بالإفراج عن ولدها وكذلك كان!

بعد يوم من السفر البعيد، فوجئت الأسرة كلها بابنها فتح الله واقفا أمامها، فاختلطت الفرحة بالحيرة والضحكة بالدموع! وبكوا كلهم كثيراً..! وكان لعيد الفطر تلك السنة من أفراح الروح، ومسرات الوجدان ما لم ينسه فتح الله في حياته قط.